رحَّالتان في الفيوم

عام ١٩١٢

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: رحَّالتان في الفيوم عام ١٩١٢
تأليف: فرانسيس جوردون ألكساندر
ترجمة: د. محمد عزب - د. مي موافي
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القطع: 21X14
سنة النشر: 2025
مراجعة: رنا أبو الغيط

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 19894 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 649 - 4

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-649-4

رحَّالتان في الفيوم عام ١٩١٢

تأليف

فرانسيس جوردون ألكساندر

ترجمة

د. محمد عزب
أستاذ مساعد
الأدب الإنجليزي

د. مي موافي
مدرس لغويات وترجمة
جامعة الأزهر

رحَّالتان في الفيوم
عام ١٩١٢

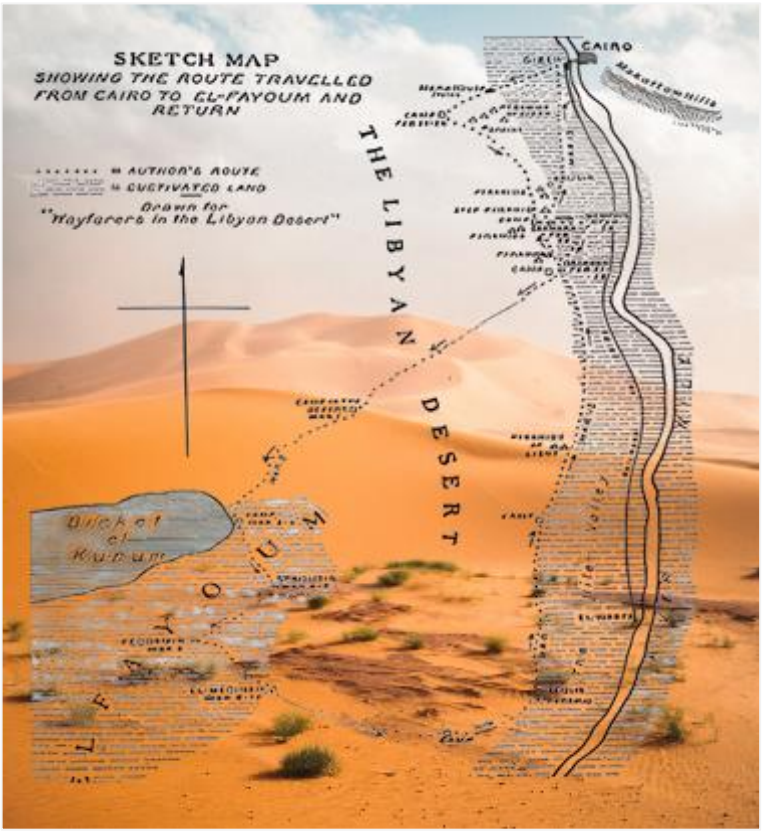

حقوق الملكية

Frances Gordon Alexander (Paddock), Wayfarers in the Libyan Desert, New York, G. P. Putnam's Sons, 1912.

صدر الكتاب عام ١٩١٢، وسقطت عنه حقوق الملكية بالتقادم. دخل الكتاب نطاق الاستخدام العام، وهو متاح على موقع "Google Books".

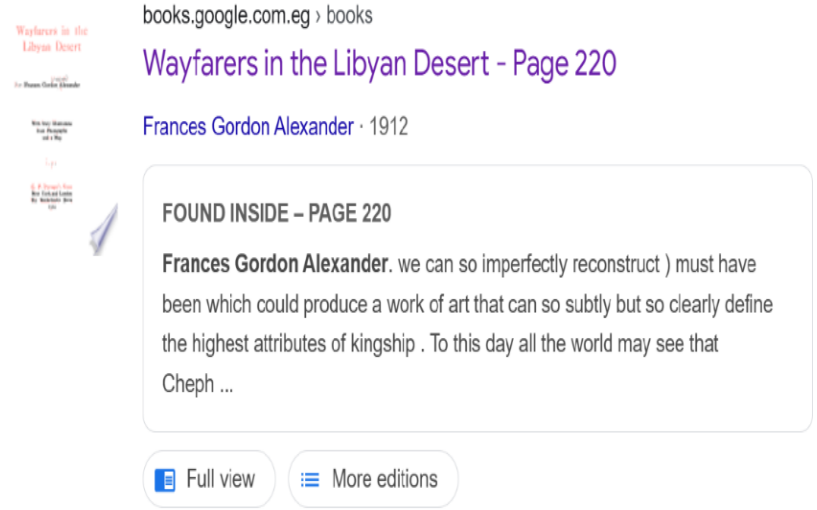

عنوان الكتاب

عنوان الكتاب الأصلي هو "رحالتان في الصحراء الليبية". و"الصحراء الليبية"، لمن لا يعرف، هي جزء من كيان هائل اسمه "الصحراء الكبرى"، والجزء الموجود منها في مصر يُعرف ب "الصحراء الغربية". في واقع الأمر، لم يتجاوز تطواف وتجوال السيدتين المُشار إليهما في العنوان دهشور وسقارة والفيوم؛ وعليه فقد ارتأى المترجمان تغيير العنوان ليكون أكثر دقة وتحديدًا.

الصور التي أدرجتها المؤلفة في المتن

كان مع المؤلفة آلة تصوير أخذت بها لقطات متنوعة على مدار الرحلة. هذه الصور التي وصل عددها إلى خمس وخمسين، باهتة وتستعصي على المعالجة، لذا حذفها المترجمان. وبيان هذه الصور بالترتب هو كالآتي:

على حافة الصحراء - أبو الهول - فضل الله وطلبة - أهرامات الجيزة- سعيد الفتى سائس الحمار، وعلي - جرار المياه - مقبرة إسلامية - قرية مصرية - ندف الصوف - الإبحار الشراعي في النيل - قبر صوفي - شفا الحضارة - الشمس الغاربة - مياه الشرب - أمواج الصحراء - لمحة للصحراء - مخيم بدوي - ترعة في الفيوم - فتاة بدوية - جاموسة - مسافر- سفن الصحراء - في الطريق - جاموسة مصرية - سوق سنورس- عائق متحرك - طابور جمال ذات أحمال كبيرة - الفيوم المروية بأريحية- يوم السوق - حاوي الثعابين - جسر في المدينة - قرية أصيلة - أبراج الحمام - أزحم شوارع البلدة - فتاة تحمل جرة مياه - تحت سماء المساء- حفل زواج - طريق في الفيوم - شادوف - نقش بارز خاص بسيتي الأول-

رحَّالتان في الفيوم عام ١٩١٢

طريق مُعبد في الصحراء - هرم ميدوم - بدوي مفزوع - موناليزا عصرية - الغذاء الضائع - غيات الحمام - غيضة نخل قديم - في الصلاة - ترعة جافة - عبد الله خادم البكوات الثلاثة - حرث الحقول - شيخ يتعبد - مقام ولي - إبل مُحملة.

الحواشي

جميع الحواشي في متن الكتاب من عمل المؤلفة، ما لم يُنص على غير ذلك.

معلومات عن المؤلفة

"فرانسيس جوردون ألكساندر"

لا توجد معلومات كثيرة متوفرة عن المؤلفة، لكننا نعرف أنها أمريكية ولدت في مانهاتن بنيويورك عام ١٨٨٨، أي أنها كانت في الرابعة والعشرين وقت القيام بالرحلة، وأنها تزوجت عام ١٩١٠ من "ألن جوفرنير ويلمان."[١]

1 Allen Gouverneur Wellman.

معلومات عن رفيقتها في الرحلة

"الليدي إيفلين موري كوبولد"[1]

بريطانية ولدت عام ١٨٦٧، أي أنها كانت تكبر فرانسيس بواحد وعشرين عامًا. عاشت فترة طويلة في القاهرة، وتعلمت اللغة العربية، مما دفعها إلى إعلان إسلامها وأداء الحج عام ١٩٣٣. دونت مشاعرها عن هذه التجربة الفريدة في كتاب "الحج إلى مكة".[٢] توفت عام ١٩٦٣.

---

1 Lady Evelyn Murray Cobbold.

٢ زينب كوبلد، رحلة الحج إلى مكة، ترجمة: طارق شكري مجاهد، دار ديوان للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع، الكويت، ٢٠٢١.
الليدي إيفيلين كوبولد، من لندن إلى مكة- رحلة حج أول امرأة بريطانية، ترجمة: هبة هنداوي، دار السراج للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

رحَّالتان في الفيوم عام ١٩١٢

المحتويات

مقدمة للمترجمين ١٧
استهلال ٣١
(١) مخيمنا الأول ٣٣
(٢) دراويش الجيزة ٣٩
(٣) المتابعة إلى سقارة ٤٧
(٤) مدينة الموتى ٥٥
(٥) يوم في دهشور ٦٥
(٦) زيارة إلى الحرملك ٧١
(٧) الرمال المتحركة ٧٧
(٨) التيه في عاصفة رملية ٨٣
(٩) على ضفاف بحيرة قارون ٨٩
(١٠) الطريق إلى سنورس ٩٣
(١١) جنة الله ٩٧

(١٢) رياض الورود في فيديمين ١٠٣
(١٣) المدينة ١١٩
(١٤) أولى الناشطات في حقوق المرأة ١٣٥
(١٥) حياتُنا في المُخيم ١٤٩
(١٦) الغذاء الضائع ١٦٣
(١٧) عِفريت ١٧٩
(١٨) نهاية رحلتنا ١٨٧
السيرةُ الذاتيةُ للمترجمَين ١٩٣

مقدمة للمترجمين

كثيرة هي الأوراق التي كُتبت عن الفيوم باللغة العربية، لعل أبرزها "تاريخ الفيوم وبلاده" لعثمان بن إبراهيم النابلسي، وكتاب "تاريخ الفيوم" لإبراهيم رمزي وغيرها. وأما كتابات الإنجليز والأمريكيين عن إقليم الفيوم فمتعددة وقديمة؛ وقد رأى المترجمان، للفائدة، إرفاق أنابيش منها في هذه المقدمة تغطي فترة زمنية تناهز مائتين وخمسين عامًا ونيف.

مقتطفات

من المدونات

الأنجلو-أمريكية

عن منخفض الفيوم

من ١٧٤٣ - ١٩١٠

(١)

ذهبت لتفقد موقع مدينة "أرسينوي"[١] القديمة، التي تقع شمال المدينة الحالية، على بعد اثني عشر ميلاً ونصف من البحيرة. كانت تُسمى في الأساس "مدينة التماسيح" حيث كانوا يعبدون التماسيح هناك ويربونها في البحيرة. شهد "سترابو" هذا الأمر وقدم وصفًا استثنائيًا عن هذه العبادة. وأما "ديودورس" فقد أعزى عبادة التماسيح لسببين: الأول أن الملك مينا أو (مينيس)، أحد الملوك القدماء الذي بنى المتاهة، طاردته الكلاب إلى هذه البحيرة، فحمله تمساح إلى الضفة الأخرى، فبنى المدينة في لمسة شكر له، وأسس عبادة الحيوان، وخصص البحيرة لتغذيته.[٢]

---

[١] الاسم القديم للفيوم. جاء الاسم تكريما لزوجة "بطليموس الثاني". (المترجمان)

[2] Richard Pococke et al, A Descrription of the East, and Some Other Countries, Vol. I, W. Bowyer, London, 1743, P. 59.

(٢)

تتكون المنطقة المحيطة بقرية "طامية" من تربة خصبة، من شأنها أن تجازي جهود الفلاحين بحصاد وفير، لولا أنها عانت من التبوير - كما يبدو - لفترة طويلة، وأمست في حالة من الإهمال التام. بالرغم من ذلك، سرعان ما دلفنا إلى سهل خصب يدعو على البهجة، تقطعه ترع صغيرة لا حصر لها، وعلى طول ضفافها كانت هناك جسور مرتفعة تُستخدم كطرق، وتشكل الروابط الوحيدة للتواصل بين القرى خلال فترة الفيضان. في العديد من الأماكن، كانت المياه لا تزال راكدة في برك صغيرة تحوطها الخضرة.[١]

1 James Augustus St. James, Egypt and Mohamed Ali, Longman, Rees, Orme, Brown, Green, & Longman, London, 1834, P. 228.

(٣)

في الفيوم، ثمّة من أخبرني أن هناك عددًا هائلًا من الأسماك في بحيرة قارون، لكنهم لم يمتدحوا جودتها كثيرًا. وفقًا للرحالة "بوكوك"، فإن لدى العامة هنا معتقدات راسخة حول قارون؛ يقولون إنه كان عاهلا، وإن مفاتيح كنوزه كانت تحملها مائتان من الجمال.

انزويت عن رفاقي عقب حملة صيد ناجعة للطيور البرية، جلست على حافة البحيرة أقضم قطعة من الخبز العربي المُغبر كوجبة غداء، وأطلق العنان لخيالي الجامح، فرأيت نفسي أسير عبر منطقة "أرسينوي"، وسط مراعي جميلة من أيام "موريس".[١]

رحت أستنشق الهواء المعطر بروائح الربيع المنبعثة من أخصب ربوع مصر، الوادي الأجمل على الإطلاق بمنتجاته الأكثر ندرة وفخامة.

[١] تُعرف بحيرة قارون أيضا ببحيرة "موريس". (المترجمان)

فجأة كبحت جماح خيالي بخاطرة: "هكذا يمر مجد الدنيا"، وقفزت على قدمي مطلقة عيارين من بندقيتي الموثوقة نحو سرب من طيور "أبو فَحْت" التي حلقت عاليًا في السماء. أسقطت اثنين من هذه الطيور الأنيقة والغريبة.[1]

1 Dawson Borrer, A Journey from Naples to Jerusalem, J. Madden & Co., London, 1845, P. 218.

(٤)

جغرافيًا، الفيوم عبارة عن حوض تشكّل بسبب انخفاض في سلسلة الجبال الليبية، على بعد حوالي ستين ميلاً جنوب أهرامات الجيزة. يبلغ حجم المنخفض حوالي مساحة مقاطعة "أوكسفورد شاير" أو "سوري"، أي أنه يمتد لما يُقارب ٧٥٠ ميلاً مربعًا. تشغل بحيرة قارون أكثر من ١٠٠ ميل مربع من هذه المساحة، وهي بحيرة طبيعية تُشكل الحدود الشمالية والغربية للفيوم. هذه المساحة المائية الكبيرة تُشبه هلالاً غير منتظم، يتجه جانبه المحدب نحو الشمال والشمال الغربي، وجانبه المُقعر نحو الجنوب والجنوب الشرقي.[١]

1 F. Barham Zincke, Egypt of the Pharaohs and of the Kedive, Smith Elder & Co., 1871, PP. 98-99.

(٥)

تبدو قرية "فيديمن" أكثر جمالًا عند رؤيتها على الأرض مقارنة برؤيتها من الأعلى. تبادل الناس السلع في سوق القرية، وفي الشق الذي يسكنه المسلمون، فوق منحدر عار أسفل المنازل. جاء الأقباط واختلطوا بسلام مع جيرانهم. وأما نحن الذين لا ننتمي إلى أي من الفريقين (باستثناء الإنسانية البحتة)، فقد تلقينا تحيات غاية في الود. قاد السيد هارفي الطريق إلى قمة التل، وهناك جلسنا مؤقتًا بالقرب من شجيرات صبار لرجل مسلم أمدتنا أوراقها العريضة ببقع من الظل. جاءت إلينا زوجة صاحب البستان تحمل قوارير الماء، بينما راح صاحب البستان نفسه يذب الأطفال الفضوليين. استمتعنا بوجبة غداء رائعة بكل معنى الكلمة. ثلاثة مسيحيين كرسوا حياتهم لغاية، وثُلة من العلمانيين، ومسلمون متدينون، وآخرون غير مبالين، وقبطيان أو أكثر. أظلت هذا الجمع في وداعة وبهاء، سماء بدت وكأنها تبتسم لتلك الرمزية المجردة، وكأنها تعترف بالغريزة الفطرية للصلاة والعبادة والإيمان لدى كل فرد.[١]

1 Bayard Taylor, Egypt and Iceland, G. P. Putnam's Sons, New York, 1874, P. 97.

(٦)

يتفرع الطريق عند محطة "الواسطة" التي تبعد خمسين ميلاً عن القاهرة في اتجاه الفيوم. تأخرنا هنا لبعض الوقت في انتظار القطار الذي سيُقلنا إلى هناك. جلسنا في مزرعة نخيل مخصصة لتناول الوجبات في الهواء الطلق. كان قشر البيض المسلوق مبعثرًا في المكان. أعددنا الشاي لأنفسنا في الظهيرة باستخدام الوابور أو "السبرتاية"، مما أثار دهشة الحاضرين. تأملنا هرم "ميدوم" الذي يرتفع خلف القرية التي تحمل نفس الاسم على بعد حوالي أربعة أميال. من المثير للدهشة أن هذه المصاطب المتاخمة تحوي أقدم آثار العالم، والنماذج الأولية لفن الكتابة. لقد أخبرني السيد "دانينوس"، عالم المصريات الذي اكتشف هذه التماثيل منذ عشر سنوات خلت، قصة طريفة عن اكتشافها. في سابقة هي الأولى من نوعها، أرسل شيخ قرية "ميدوم" رسالة مباشرة إلى الخديوي إسماعيل باشا، وأخبره أنه اكتشف في الجوار مغارة تذخر بالكنوز. أحال الخديوي الأمر إلى "ميريت باشا"، الذي لم يكترث كثيرًا للأمر، لكنه كلف "دانينوس" بيه، الذي كان يساعده آنذاك في أبحاثه عن

الآثار، ليتحقق من صحة الأمر. عندما وصل "دانينوس بيه" إلى هناك، وجد الشيخ في حالة من الهلع والفزع بسبب تهديد الضباط المحليين واستيائهم من فعلته، لأنه أرسل إلى الخديوي مباشرة ولم يتبع التسلسل والقنوات التقليدية للإبلاغ.[١]

1 Laurence Oliphant, The Land of Khemi: up and down the Middle Nile, W. Blackwood and Sons, London and Edinburgh, 1882, PP. 3- 4.

(٧)

قال الملك: "يوسف، ليس لدي ضيعة أخصّ بها حبيبة قلبي، ابنتي الصغيرة. لقد حان وقت تزويجها، ولدي رغبة جامحة للاستفادة من الأرض الغارقة في الهون لتحقيق مرادي. إنها محاطة بالصحراء وقريبة من حاضرة الملك؛ وبالتالي ستكون ابنتي مستقلة وآمنة." رد يوسف: "هذا صحيح، سيتم كل شيء بأمر الله وعونه عندما ترغب." علق الفرعون: "عجّل، فهذا أفضل." جُمع العمال، وحُفرت ثلاث قنوات كبيرة، وجُففت المياه. قُطعت أشجار الأَثْل ونُظفت الأدغال، ومع ارتفاع فيضان النيل دخلت المياه بحر يوسف وتدفقت إلى الفيوم، مُشّكلة الأرض التي أنبتت حدائق الورد الفاخرة... كانت النتيجة مُرضية للفرعون الذي سأل يوسف: "كم استغرقتم من الوقت لجعل هذه البرية تزهر؟" جاء الرد: "سبعين يومًا." عندها التفت الفرعون إلى حاشيته المذهولة معقبًا: "لا يقو أحد على فعل ذلك في ألف يوم." وهكذا تغير الاسم من الهون (المستنقع) إلى الفيوم (أرض الألف يوم).[1]

1 Mary Thorn Carpenter, In Cairo and Jerusalem, Anson D. F. & Company, New York, 1894, P. 91.

(٨)

كنا قد كتبنا قبل وصولنا لحجز غرف في "فندق الفيوم"، ووجدنا نوبيًا ممتلئ الجسم برفقة عربيين بانتظارنا في محطة المدينة لتولي أمر متاعنا. دلنا صديق على هذا الخان وأشار إليه بعبارة "فندق يوناني مقبول". تبين أن هذا الوصف ينطبق عليه تمامًا. كان بابه على الشارع مباشرة ويفتح على ردهة كبيرة معدومة الأثاث، خلا طاولة بلياردو وعدد من المناضد والمقاعد الحديدية الصغيرة المرصوصة على الجوانب. هناك غرفتان صغيرتان تفتحان مباشرة على هذه الردهة، وفي مقابل المدخل هناك سلم يؤدي إلى شرفة تطل على الجزء الداخلي من الغرفة الكبيرة يفضي إلى غرف النوم في الطابق العلوي. بالرغم من كل ذلك، بذل المالك اليوناني كل ما في وسعه لجعل إقامتنا مريحة خلال الأسبوع الذي أمضيناه تحت سقفه. كان الطعام البسيط الذي قدمه لنا لذيذًا بكل تأكيد. يقع الفندق في وسط المدينة، على ضفة بحر يوسف، ويعج بالحركة والنشاط كعاصمة لمقاطعة مزدهرة.[١]

1 W. Basil Worsfold, The Redemption of Egypt, Longmans, Green and Co., London, 1899, P. 296.

(٩)

أكثر ما استمتعنا به في الفيوم الخيمة الفندقية على حافة بحيرة قارون الكبرى (بحيرة موريس القديمة). إنه منتجع رياضي حقيقي وساحر تمامًا. أقمنا هناك ليوم واحد فقط، وحظينا بمعاملة فاخرة. تناولنا وجباتنا في خيمة صغيرة مبنية على ركائز تطل على منظر رائع للبحيرة، مع الغاب والبوص المتمايل، والطيور المائية، والتلال المتقدة في الأفق. كانت خيمة صغيرة مبهجة، مغطاة من الداخل بأشكال للآلهة المصرية وخراطيشها.

عندما ننظر إلى الوراء، إلى كل ما عايناه ومررنا به في مصر، أعتقد أن رحلتنا إلى الفيوم تحتل من حيث المتعة مكانة عالية جدًا... في الحقيقة، إذا لم تزر الفيوم، فأنت لم ترَ مصر؛ فهي مدينة غنية بالكسوة النباتية والزراعات نجت من مظاهر فساد الحياة الأوروبية الحديثة. لقد زُرتها أنا و"لورنا" في ظروف استثنائية، وقد جعل مضيفنا اللطيف أيامنا فيها مثالية تمامًا. لم نلقَ أي متاعب، ولم نتحمل أي نفقات. رأينا "كل ما يمكن رؤيته"، كما كان محمد يقول دائمًا، من المحراث الكهربائي الحديث إلى أطلال المتاهة.[1]

---

1 Norma Octavia Lorimer, By the Waters of Egypt, Frederick A. Stocks Co., New York, 1909, PP. 288-289.

(١٠)

تستحق الفيوم الزيارة بكل تأكيد، إذ أنها تتباين مع ربوع مصر الأخرى؛ فهي مبهجة للعين، مترعة بالمعرفة، وسهلة البلوغ.

بمقدورك الوصول إليها من العاصمة مباشرة بالقطار الذي يقطع المسافة في ثلاث ساعات تقريبًا، وهي مكان مثير للاهتمام في حد ذاته، والمركز الطبيعي الذي يمكن انطلاقًا منه تفقد المنطقة برمتها سواء بالقطار أو المركبة.

ينطبق على الفيوم وصف الواحة الحقيقية، حيث تتدفق إليها المياه المتلألئة، وتلفّها المهامة من جميع الجهات، غير أن مياهها ليست راكدة، بل تيارها سريع وطبيعي لدرجة أنه يدير السواقي تلقائيًا، فضلاً عن إبعاده لشبح الملاريا. يُمكننا القول بأريحية أن بداية المزمور الثالث والعشرين في سفر المزامير كُتب عن الفيوم: "في مراع خُضر يربضني، إلى مياه الراحة يُوردني".[١]

---

1 Douglas Brooke Wheelton Sladen, Queer Things about Egypt, Hurst & Blackett, London, 1910, P. 229.

استهلال

تستعرض الصفحات التالية انطباعات مسافرتين غادرتا القاهرة للقيام برحلة استكشافية في الصحراء الليبية،[١] الجزء الشمالي الشرقي من الصحراء الكبرى، حتى وصلتا إلى واحة الفيوم.[٢]

بالنسبة لامرأتين تضطلعان برحلة تخييم في الفلاة، وليس معهما أحد خلا تابع عربي بغرض حمايتهما، هو أمر محفوف بالمغامرة كما قد يبدو لبعض أصدقائنا. بالرغم من ذلك تبين لاحقًا أنها رحلة آمنة تمامًا ويمكن تنفيذها، شريطة أن يكون المرافق محلاً للثقة وأهلاً لها.

بمجرد اختيار ترجمان (دليل) ذي سمعة طيبة للإشراف على الرحلة، يتخفف المرء من أي مسؤولية ويتحلل من الهم، حيث يتولى الرجل جلب الجمال والحمير والخيام، وتوفير الخدم وتأمين المؤن.

---

[١] الصحراء الغربية أو صحراء مصر الغربية.

[٢] تُعرف الآن بمحافظة الفيوم أو "الفيوم" مباشرة بدون كلمة "واحة" أو "إقليم" أو "منخفض". (المترجمان)

عادة ما يتوقف الثمن، الذي يُدفع جزءًا منه مقدمًا في العادة، والجزء المتبقي بعد انتهاء الرحلة، على حجم القافلة.

وأما راحة المسافر فتعتمد جزئيًا على المبلغ الذي يبذله، ولكن إلى حد كبير على الكفاءة الإدارية ونزاهة الترجمان. وبما أن الترجمان المرخص يتحمل مسؤولية وقوع أي حادث لمن يُرشدهم ويؤمنهم، فإنه يتخذ كل الاحتياطات اللازمة لسلامتهم. عند رؤية الحراس يقومون بدوريات أمام الخيام في الليالي الهادئة المرصعة بالنجوم المتلألئة، يشعر المرء بالغبطة وراحة البال والأمان، كما لو كان في مدينة مزدحمة.

ف. ج. أ

نيويورك، الأول من أكتوبر ١٩١٢.

(١)
مخيمنا الأول

اليوم هو الخميس، الثالث والعشرون من شهر فبراير، أول أيام انقشاع البرد.

تُرى، هل أطلت هذه الشمس الساطعة، وانجلت هذه السماء الصافية كبشرة خير ونحن نستهل رحلتنا عبر الصحراء؟

ها نحن نتجه صوب الفيوم، أرض الخصوبة، بل أرض الذهب، حيث تُورق أشجار التين والزيتون، ويزدهر الكروم والليمون، وتفوح رائحة الورود و"الميموزا"، فتعبأ الأجواء بعطرٍ لا يُقاوَم؛ وتحمل المياه المترقرقة التي تتدفق عبر الترع الحياة والنماء والسعة والبحبوحة إلى الأراضي الوفيرة. بدا مشهدًا ساحرًا ومغايرًا لبرودة القاهرة وسمائها الرمادية، وسحبها الكالحة التي تُثبط همتنا وتفتّ في عضدنا، ومطرها الذي يعجز عن تهدئة الغبار الذي يدور ويلتف كما يحلو له ويصفع الوجوه في كل ركن وزاوية من شوارعها وأزقتها.

أجل، مسافرتان تبحثان عن الدفء وتفتشان عن أشعة الشمس. مسافرتان متلهفتان لنفض تراب القاهرة عنهما، والتخلص -قدر الإمكان- من كل ما يعيقهما ويكبلهما.

حين فرغنا من تناول وجبة الغداء، ركبت خادماتنا مع أمتعتنا الخفيفة في سيارة، ومضينا خلفهم في سيارة أخرى. أعطينا ظهرنا للقاهرة وولينا شطرنا نحو فندق "مينا هاوس" على حافة الصحراء الليبية التي تزحف من حافة النيل شرقًا إلى الصحراء الكبرى الممتدة نحو الجنوب والغرب.

بعد رحلة قصيرة، غادرنا السيارة الصاخبة لنجد فضل الله، الترجمان، في انتظارنا ليتولى زمام إرشاد مجموعتنا الصغيرة.

شحنا أمتعتنا على ظهر جمل، وبقلوب وجلة امتطينا حميرنا وانطلقنا نحو المخيم والحرية التي تنتظرنا.

نصب المرافقون المخيم على بعد ثلاثة أميال. بدا كمجتمع صغير مع توهج وتألق الخيام البيضاء تحت أشعة الشمس في فترة الظهيرة.

تشكلت قافلتنا من اثني عشر جملاً لحمل الأمتعة، و"عربة كارو" يمكنها السير في الرمال وحصان، وخمسة حمير للركوب. بلغ عدد

مرافقينا من العرب خمسة وعشرين، وشمل ذلك فضل الله وابنه الصغير، طلبة، الذي سرعان ما استحق لقب "الفظيع"؛ خلا رشيد، الترجمان الثاني، المنوط به تسيير القافلة على نحو حثيث. زد على ذلك النادلين: أحمد وعبد الصادق، والطاهي، محمد ومساعده، والفارس سعيد، ناهيك عن الجمالين وسائسي الحمير.

توفر لدينا أربع خيام للنوم: واحدة لنا، وأخرى للخادمات، وثالثة للمطبخ والطعام، والأخيرة مُحملة على ظهر جمل ثم يجري نصبها خلال النهار لتناول الغداء وأخذ القيلولة.

خيمنا تلك الليلة كثيبًا من أهرامات الجيزة، تلك المقابر العظيمة التي ابتناها الملوك الراحلون في عصور سحيقة. تواتر أنه لأكثر من قرن، أثناء تشييدها، أُغلقت المعابد، وأُلغيَت الأضاحي، وتوقفت حياة الأمة برمتها، بينما أُجبر السكان بأكملهم على العمل في نقل الصخور الضخمة من المحاجر، وتحويلها إلى هذه الآثار الهائلة.

"كان بمقدور الفرعون مشاهدة هذه الصروح الجبارة من شرفات وحدائق قصره، ومن كل نقطة في السهل الذي يقيم فيه، بين

"هليوبوليس" و"ميدوم". ذكرته معاينة هذه الأهرامات: دوما بالمصير الذي ينتظره والذي لا مهرب منه رغم التأليه الذي يحظى به."[١]

خلبت ألبابنا الخيام ببطانتها الزاهية وتصاميمها العتيقة الملونة بالأزرق والأخضر والقرمزي. زينت حواشيها وثناياها آيات من القرآن بخط عربي بديع، الأمر الذي خلّف تأثيرًا مريحًا للعينين. بالإمكان رؤية هذه الخيام في أي يوم بسوق الخيامية. تعود التصميمات والزخارف إلى العصر الإسلامي، بل وربما كانت نفس النوعية التي استخدمها صلاح الدين وقت الحروب الصليبية.

عرفت الهند هذه الخيام في القرون السحيقة، وحملت نقوشًا تُمثل رجالًا وحيوانات؛ ولكن مع ظهور الإسلام، الذي يُحرّم تصوير الأشكال الحية، استنبط أتباعه "الأرابيسك" الذي ظل حتى اليوم مثالًا جذابًا للفن الإسلامي.

اقتحمت أشعة الشمس مداخل خيامنا. نادتنا السماء الزرقاء اللامتناهية والتلال الأرجوانية. رحنا نتجول في الصحراء وننظر عبر

[١] من كتاب ماسبيرو "فجر الحضارة".

الرمال الذهبية إلى أطراف العالم، الفيوم أو "مسيرة ألف يوم"، كما يقول البدو. تشبه الرمال المتلاطمة أمواج البحر العاتية. حين اعتلينا إحدى التباب، ألفنا مجموعة من الإبل بصحبة راعيها العربي.

بدت قمم الأهرامات مكسُوة بلون بنفسجي باهت مقابل السماء العتيقة. تابعنا المسير حتى غابت البعير عن ناظرينا وكذا سائسها الوحيد. كانت تلك إحدى المفاجآت المتواصلة التي لم تضنّ بها علينا تلك المفازة الآسرة.

بضع خطوات وارتقاء للأعلى، تنكشف لك عجائب جديدة. انحدار طفيف في تجويف الرمال تختفي معه الأشياء التي رأيتها للتو، وكأن الأمر برمته من فعل السحر.

فقدان الطريق أو الضياع هو أسهل شيء في هذا العالم.

تابعنا المسير، ومع تقدمنا لاحت سلسلة تلو الأخرى من التلال التي تخفق خيالاتها في الهواء. أي عجائب وغرائب تنتظر المرء خلف هذه المساحات الشاسعة من الرمال المتوهجة؟! يبدو القلق والنَّصب وجنون الحياة الحديثة، عند النظر إليهم من هذه الآفاق الرحيبة، ومن هذه البسيطة الفسيحة، أمورًا عادية. إن تكبد السعي ذهابًا وإيابًا في هذه

الحياة ما هو إلا خدعة. يدرك المرء ذلك في البيداء التي تبدد كل التفاهات. هنا تكسر الروح القيود التي تحبسها. خلف كل قمة تالية، يرفرف الفضول والرغبة في الارتياد والاستكشاف. ندرك أنه لا أمل بعيد المنال، ولا حلم لا يمكن تحقيقه. ندرك أنه لا يوجد شبع مطلق، وأن القناعة هي أفضل ما يحوزه الإنسان. تلك الفلاة لا نهاية لها، إنها مترعة بعجائب محيرة وحياة جديدة وجمال فريد. وراء كل ذلك تكمن "الأشياء التي طالما اشتهيناها ولم نجدها."

(٢)
دراويش الجيزة

الجمعة، ٢٤ فبراير.

نصبنا الخيام على شكل نصف دائرة نحو الشرق، بينما بقيت الدواب على مسافةٍ إلى يسار الطريق، تصحبها الحوزية والمكارية، والأمشجية، وسائر المرافقين.

أخذ "طُلبة" يخب حول المخيم. هو شخص ضئيل الحجم وتعتريه بعض الغرابة. يلبس رداءً حريريًا أزرق اللون تحت عباءة سوداء يجرجر ذيلها في الرمال، بينما يضع على رأسه بزهوٍ واختيال طربوشًا قرمزي اللون. يمتلك "طُلبة" عبدًا تعود أصوله إلى السودان يُدعى "علي". تنحصر مهمة "علي" هذا في تسلية "طُلبة" والحيلولة دون تورطه في مشاكل. ثنائي غريب، بيد أنهما يستمتعان بالحياة على نحوٍ يكتنفه الهدوء والاسترخاء.

يرتدي "علي" جلبابًا قطنيًا أبيض اللون يتدلى من رقبته إلى كاحليه، فضلًا عن طاقية بيضاء يضعها على شعره الكثيف. عمره تسع سنوات، ومسؤوليته الوحيدة في الحياة هي خدمة سيده النحيل، الذي يكن له حبًا أعمى لا يستحقه "طُلبة" البتة.

أدخلت الحيوانات الموجودة في مخيمنا الصغير الكثير من المتعة والبهجة على قلوبنا، لا سيما الجمل.

نربت على الحمير، تلك المخلوقات الصغيرة الصبورة ذات الأقدام الثابتة التي تحملنا لمسافات طويلة. نركبها حين لا نستخدم عربة الرمال؛ وأما الجمل العربي وحيد السنام فلم ترق لنا طريقة مشيه.

حاولنا تقديم السكر للحصان الأبيض الصغير، وكذلك للجمال، لكن الأخيرة قابلت اهتمامنا بازدراءٍ متعالٍ. زرنا خيمة المطبخ لرؤية محمد، النوبي العجوز ذي المظهر المهيب. أخبرنا الرجل بفخرٍ واعتداد بأنه كان ذات يومٍ طاهيًا للجنرال "جرينفيل" باشا.

أظهرنا اهتمامًا بالعرب الذين تشاركنا معهم حياة البداوة. كان من بينهم "عبد الصادق" و"أحمد"، وهما شابان بدويان يرتديان ملابس بيضاء نقية وأحزمة حمراء، ويقومان معًا بمهام النادل والخادم، بينما

كُلّف رشيد بحراسة الجزء الذي نعيش فيه من المخيم. لطالما سمعنا وقع خطواته الخفيضة في جوف الليل، ورأينا ظله، مع بندقيته المعلقة على كتفه، في مقابل السماء المرصعة بالنجوم، إذ اعتدنا النوم ومداخل خيامنا مشرعة، والاستيقاظ مع خروج شمس الصباح من مكمنها.

كانت ليلة البارحة مقمرة فتلألأت الصحراء وشمخت الأهرامات كحراسٍ من العمالقة على بوابة أسرار الماضي التليد. شهد حراس الصحراء هؤلاء صعود العواهل وسقوطهم، ومدّ الحضارات وجزرها، ومجد الإمبراطوريات وانهيارها. ما زالت الأهرامات منتصبة بلا حراك، ملفوفة في عباءةٍ من الصمت البرزخي الذي يستحيل اختراقه.

لطالما عاملت الطبيعة الآثار في هذه الربوع المشمسة بلطف، بينما دمّرت يد الإنسان الكثير منها. نهب الهكسوس والفرس الأهرامات وهدموا العديد من المعابد، كما شوّه العرب التماثيل التي يخلع عنها دينهم صفة القداسة. كسر "محمد علي" أحد الأعمدة الجميلة في الكرنك للحصول على الجير لبعض أعمال النترات التافهة، رغم أن تلال الحجر الجيري في "طيبة" لم تكن بعيدة! وقبل ستمائة عامٍ نزع السلطان حسن الغطاء الخارجي للهرم الأكبر المصنوع من الجرانيت المصقول لبناء المسجد الذي يحمل اسمه!

اليوم هو الجمعة الذي يضاهي الأحد لدينا، ومن ثم ذهبنا لرؤية الدراويش الذين يقيمون صلاة منتصف النهار في كهفٍ بالقرب من الأهرامات. رغم مرورنا كثيبًا من كهفهم آنفًا غير مرة، إلا أننا لم نكن نعرف بوجوده من الأساس.

بالقرب من الدرج الصاعد إلى مدخل الكهف، يوجد عدد من الجمال والخيول والحمير التي يهتم بها الصبية فترة مكوث أصحابها داخل الكهف. كان المدخل مزدحمًا. شققنا طريقنا بشق الأنفس. من ناحيةٍ أخرى، يُعزى جزء من النصب الذي مررنا به إلى اعتراض المسلمين بشدة على وجود غير المسلمين في المكان.

خلعنا نعالنا قبيل الولوج في الكهف، إذ يُحاط مكان الصلاة بهالةٍ من القداسة. ألفينا أنفسنا في مكانٍ خافتٍ ذي سقفٍ خفيض. كان الكهف مترعًا بالعرب الذين يتمايلون بتؤدة إلى الأمام والخلف وهم يهتفون "الله، الله"، على إيقاعٍ رتيب ومتكرر من عزف الناي الخشبي.

كلما زاد وقع الموسيقى الغريبة، كلما تشرّست حركاتهم واشتعلت محياهم بفرحٍ جامح؛ ولمعت في عيونهم جذوة الإيمان الروحاني. ينسدل شعر الدراويش على وجوههم، بينما ينحنون إلى الأرض ويعودون إلى

الخلف بوقعٍ رتيب. ترتفع الحرارة وتتقد بينما يقذفون بأنفسهم إلى الأمام والخلف وكأنهم ثعابين داكنة تتلوى. يرغون ويُزبدون؛ ويتصبب العرق من أجسادهم؛ ويضج الكهف بصياحهم الذي يُشبه هدير البحر المزمجر.

هناك كهف آخر مُسيّج بنصف جدارٍ ومُخصص للنساء اللاتي تتقد عيونهن بنفس العاطفة الشديدة، وتنبئ كل إيماءة من حركاتهن بنشوةٍ عارمة وسعادةٍ غامرة.

سرعان ما وصل الجمع إلى حالةٍ من الهوس الديني والتنويم المغناطيسي الذاتي. إذا اشتكى أحدهم آنفًا من ألمٍ فهذا يعني - حسب اعتقادهم - أن روحًا شريرة قد دخلت فيه، بيد أن ذكر اسم الله، مع فرط الحركة المستمرة وبركة المكان، من شأنهم طرد هذه الأرواح الشريرة.

يغلب عليهم الاعتقاد جميعًا أن خمسة أرواحٍ لأكثر الصوفيين بركةً وكرامةً تلتقي كل ليلة خميس في هذا الكهف، ويتبادلون أطراف الحديث. لا يجرؤ أحد على دخول الكهف في تلك الليلة، خشية أن ينزل به العقاب المحتم.

قبيل مغادرتنا، حاولنا التقاط بعض الصور للمجموعات التي تمر بنا، لكننا توقفنا عن ذلك حين أبدى الكثيرون اعتراضهم.

في طريق الإياب إلى المخيم مررنا بتمثال أبي الهول. تسمّرنا كالآخرين أمام تلك العجيبة السرمدية لهذا النصب الذي صنعه الإنسان. بتعبيرٍ عن صبرٍ لا يحده حد وغموضٍ لا يمكن سبر غوره، تقبع هذه المنحوتة من الصخر الصلد في رمال الصحراء، بينما تتجه عيناه الكفيفتان نحو الشرق.

صدحت موسيقى في مخيمنا، تبيّن أن مصدرها سعيد، الفارس. بابتسامته البسيطة وعينيه الحالمتين، راح ابن الصحراء الحقيقي يستحضر من نايٍ خشبي نغماتٍ غامضة وحزينة تشبه رفرفة الطيور الحزينة وانبجاس الأرواح المحبوسة. رافقه أحيانًا آخرون؛ يضربون الطبول بحدة، أو يعزفون على الدربكة، أو يصفقون بأيديهم حسب الإيقاع. في البداية تبدو الموسيقى رتيبة، ولكن تدريجيًا تبدأ النغمات غير المألوفة، التي تنبض بروح الشرق الغامضة، في التأثير علينا وكأن لها سحرًا عجيبًا. أحيانًا، يقتنص أحد سائسي الجمال الفرصة للانضمام إلى الرقص البدوي.

تعود أصول البدو إلى الجزيرة العربية. الآن هم رُحّل في الصحراء الكبرى، والصحراء الليبية، والصحراء السورية، والصحراء العربية. قد يتراوح عدد القبيلة من ٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ شخص، وكلهم يمتلكون جمالًا وأغنامًا وماعزًا. عندما تتحرك القبيلة، فإنها تجتاح مساحاتٍ شاسعة من الأرض، وتجبر الذئاب والثعالب والغزلان وكل الكائنات البرية في الصحراء على الفرار. غالبًا ما تحذر هذه الحيوانات القبيلة من اقتراب قبيلةٍ أخرى. يتاجر أبناء إسماعيل هؤلاء بالتمور والموز والحناء وقصب السكر. يجلبون هذه الأصناف من الواحات البعيدة إلى المدن القريبة من البحر، ويعودون في النهاية بالتبغ، والشاي، والقهوة، والحبوب.

يُناط بطائفةٍ من الأعراب المحاربين والمدججين بالسلاح حماية القوافل الكبيرة في حركة التجارة مع السودان وما وراءها. تاجروا آنفًا في العبيد وتوسعوا في هذه المهنة. الآن يخرجون بحثًا عن العاج وشذرات الذهب وريش النعام والمنتجات الثرية من أقاصي الجنوب.

تقطع هذه القوافل الثمينة الصحراء في وجلٍ من عصابات اللصوص الرحّل المتأهبين دومًا للانقضاض على أي قافلة بلا حماية. ويُعد الطوارق أشدّ أعدائهم رهبة. الطوارق هم عرقٌ قوي يُطلق عليهم "الآيسين من رحمة الله"، وليس لديهم كلمة تعني "القانون". أشخاصٌ

تعتريهم الغرابة؛ يخفون وجوههم خلف تلفيعاتٍ سوداء، حتى في حضور عائلاتهم. يسكنون واحاتٍ نائية في الصحراء الكبرى ويتجولون في منطقةٍ كبيرة بحجم روسيا. يمتطون سلالة الجمال البيضاء الشهيرة، الأسرع في الصحراء، ويقتفون أثر القوافل سرًا لأسابيع، وهم يتحيّنون الفرصة للانقضاض عليها. الصحراء وحدها شاهدة على المذابح التي تُرتكب، حيث يكون القتال حتى الموت. لا تُطلب الرحمة ولا تُعطى، ولا يُستثنى النساء أو الأطفال أو الشيوخ. لا يُسمح لأحد بالبقاء ليحكي القصة المروعة. تصبح الرمال قانيةً عندما ينتهي كل شيء؛ ويختفي المنتصرون مع غنائمهم في صمت الليل. في النهاية، تأتي الحيوانات البرية بفعل رائحة الدم. عندما تشرق الشمس، لا يبقى أي أثر للمأساة الرهيبة سوى بعض الهياكل التي سرعان ما تبيض تحت الشمس وتصبح عظامًا نخرة.

الضياع في الصحراء التي لا زرع فيها ولا ماء هو الهاجس الذي يطارد البدوي وشغله الشاغل، لكن الأمر الأكثر رهبة هو هؤلاء النمور البشرية، الذين نادرًا ما يهاجمون إلا إذا كانوا واثقين من النجاح.

يأتلف طعام البدو بشكلٍ رئيسي من التمر والحليب والخبز الذي يصنعونه من الحبوب المطحونة في الرحى ثم يخلطونها بقليلٍ من الحليب ويخبزونها على النار التي يشبونها داخل حفرةٍ في الرمال.

(٣)

المتابعة إلى سقارة

السبت، ٢٥ فبراير.

استيقظنا في الصباح على صوت صياح العرب، ورغاء الجمال ونهيق الحمير، وكلها أمور تخبرنا بشكل لا لبس فيه أننا بصدد فك وطي المخيم.

جلسنا على الكثبان الرملية نشاهد خيامنا تُطوى وأسرّتنا تُرفع على ظهور الإبل. ظلت حمولة الظهر هذه تتمايل طيلة اليوم. على اليمين واليسار تأرجحت حمولتان في شبيكة من الحبال[١] مصطدمة بجانبي هذه الدواب الصبورة. تفاوتت الحمولة الثانية بين السجاجيد، والمقاعد، والأواني المطبخية والأمتعة الأخرى.

انطلق الموكب الطويل. سارت الإبل في أنفة وشمم، وهي سمة تختص بها دون غيرها من الدواب. مشى البدو بجانب الإبل بأقدام حافية.

---

[١] تُعرف بالقُراف. (المترجمان)

سُمح للطاهي النوبي، محمد، وحسب بالركوب نظرًا لكونه في الستينيات من عمره ولأن العرب دائمًا ما يجلون كبار السن ويوقرونهم.

شققنا الصحراء بالقرب من أهرامات أبي صير بينما وادي النيل مازال في مرمى البصر. شاهدنا هنا أو هناك مقامات مبنية من الطوب، بعضها تعلوه قباب غريبة الشكل، لكن كلها تؤشر إلى أماكن دفن فيها شيوخ أو شخصيات بارزة أخرى.

زعق عبد الصادق: "هناك بيت أبي". لدهشتنا لم نرَ أثرًا لبيت. فهمنا مقصده حين أردف: "غرفة أبي. لقد دُفن هناك". رغم كونه مسلمًا، إلا أنه ما زال متأثرا بالاعتقاد المصري القديم الذي يقول باستمرار الحياة المادية على الأرض.

التففنا حول قمة كثيب رملي، لتظهر وراءه قرية سقارة الخلابة وقد كساها ضباب مخضوضر بفعل مزارع النخيل. استقبلنا كالعادة نباح الكلاب المهجنة بقذارتها وتقيح جروحها وأساليبها الخبيثة والخادعة. لا تستطيع أن تدرأ عن نفسك التفكير بأن هذه المخلوقات الضالة- أينما وُجدت في الشرق- ليس لها علاقة بسلالة الكلاب لا من بعيد ولا قريب، فلا هي صديقة للإنسان ولا رفيقة به، بل حيوانات بائسة تتطفل على المجتمع والأفضل تجاهلها. بالرغم من ذلك، نميل إلى الاعتقاد بأن

التعامل المتكرر مع هذه الكلاب بكثير من الفظاظة والوحشية المروعة، أمر غير محتمل وغير مقبول.

لفت انتباهنا مشهد امرأة تجلس على عتبة كوخ من الطين. انسدل حجابها للخلف وتدلى في طيات طويلة على ثوبها. شبكت يداها حول ركبتيها. أشاحت بنصف وجهها الجميل جانبًا. اكتست عيناها الكبيرتان والداكنتان والمثبتتان على الأفق البعيد بنظرة حزينة تستعصي على الوصف. لم تحرك ساكنًا، ولم تلتفت إلينا رغم مرور موكبنا بالقرب منها. هل كانت صماء أو عمياء، أم فقدت الشغف ببساطة - كما بدا - ولم تعد تفاصيل الحياة تعني لها شيئًا في هذه الربوع التي لا تنتمي لأحد، ولا يدغدغها أمل، ولا يلج فيها شجن، ولا يدلف إليها خوف؟

عادة ما تتداعى البيوت المبنية من الطين اللبن بشكل ما. في الواقع إن الحفاظ على أي شيء في حالة جيدة هو أمر غريب عن العقلية الشرقية. بالرغم من ذلك، انتصب منزل طُلي حديثًا بدهان أبيض يميل إلى الصفرة، مع رسومات غريبة باللونين الأحمر والأزرق مصنوعة بشكل بدائي، كما لو كانت بيد طفل. علّق أحمد بفخر: "هذا منزل رجل مبارك عاد مؤخرًا من الحج إلى مكة."

في قناعة هؤلاء الناس، لا يزال الحج إلى مكة مغامرة كبيرة، تستحق الإعجاب والتقدير. في الأيام الخوالي، ربما استغرقت رحلة الحج عبر الصحراء في قافلة من الجمال سنوات. وأما الأخطار المحدقة عبر الطريق فحدث ولا حرج. كانت بحق اختبارًا عظيمًا للإيمان. الآن، ومع مد السكك الحديدية ووجود السفن البخارية، تقلصت الخطورة. إن مجرد إلقاء نظرة على محطة سكك حديد الحجاز الضخمة في دمشق، تستدعي إلى المخيلة مشهد السياح الذين يقصدون "برايتون" أو "كوني آيلاند". حتى كسوة الكعبة الشريفة أمست تُنقل بالقطار حتى أطراف المدينة المنورة، ثم تُحمل على ظهر جمل حتى تبلغ مكة مصحوبة بكافة مظاهر التكريم والطقوس القديمة. تُحجب الكسوة عن أنظار العامة بمظلة على ظهر الجمل المبارك، ويُرافقها موكب من الجمال الأخرى المزينة ببذخ شديد، وتودعها الشخصيات البارزة من الأعيان والوجهاء، فضلًا عن رجال دين والخدم. وعند وصولها ينتظرها حشد كبير من عِلية القوم وعامة الناس الذين يعلو وجوههم مظاهر الانبهار والتبجيل. وهكذا ورويدًا رويدًا "يتغير النظام القديم ويفسح المجال للجديد."

افترشنا الغبراء في تجويف رملي لتناول غداءَنا عند الظهيرة. عنّ لنا أن نريح أطرافنا المتعبة، وأجسادنا المنهكة على وسائد بدت لنا طرية وناعمة جدًا بعد ساعات طويلة على السروج. تناول الرجال والحيوانات

على حد سواء الطعام. بعد ذلك تمدد العرب بلا حراك، وقد لفّوا رؤوسهم لحمايتها من الشمس. خلع "طُلبة" عباءته وزحَف إلى ظل خيمتنا. دخل في سبات عميق. لم يغطِّ وجهه فراح خادمه الأمين يهش الذباب حتى لا يحط عليه ويسبب له إزعاجًا.

انقضت غفوة ساعات الحر؛ وانتفضت القافلة استعدادًا لمواصلة المسير. اختلطت أصوات الحيوانات مع زعيق الرجال، وهم يحثون حيواناتهم على المضي قدمًا.

في الأثناء عاينا باهتمام الخنافس التي تزحف على الرمال. أليست تلك أحفاد الجعارين الشهيرة التي عبدها المصريون القدماء كرمز للحياة الأبدية؟ تضع الأنثى بيضها في الطين اللازب لنهر النيل عندما يبدأ الفيضان السنوي في الانحسار. تعمل على تشكيل كرة من الطين الرطب الذي يحتوي على البيض، وتدحرجها بعيدًا عن النهر إلى الرمال المجاورة في الصحراء، ثم تدفن نفسها على عمق عدة أقدام، وتموت في قبرها الرملي بعد أن تنجز مهمتها. يا لعظمة هذه الكائنات الصغيرة التي نُقشت على الأحجار الكريمة، ليحملها الأحياء والأموات على حد سواء.

مع هبوب رياح باردة وانعطاف الشمس إلى الغرب استأنفنا رحلتنا. ألقت جمالنا، بأعناقها الممدودة، بظلال غريبة على الأديم، وهي تسير بخطوات بطيئة وحذرة عبر الرمال المتحركة.

شُيدت القرى التي مررنا بها على أرض مرتفعة عن الأراضي المزروعة، حتى تكون فوق مستوى النيل أثناء الفيضان. من بعيد تترك البيوت الطينية القاتمة، والمآذن الجميلة، وبساتين النخيل تأثيرًا ساحرًا، لكن من كثب وحين تدخلها، يصدمك وضعها ويروعك بؤسها.

تستأثر هذه المنطقة بالاهتمام التاريخي، فليس بعيدًا من هنا تقع ممفيس، العاصمة القديمة لمصر؛ وبالقرب من قرية سقارة تقع جبّانات الموتى العظيمة. في الواقع، إن رمال الصحراء على امتداد أميال مترعة بالمقابر والمعابد التي ترقد في باطن الثرى. لقد كانت هذه السهول الشاسعة ذات يوم مقابر للفراعنة.

على الرغم من أن علماء الآثار واللصوص على حد سواء قد نهبوا هذه المقابر الفخمة لآلاف السنين، إلا أن الكنوز المدفونة بها لا تنضب، ولا يزال هناك العديد من الخامدين في نومهم الأخير، ملفوفين في سرابيل من الكتان الناعم، ومحاطين بنقوش بارزة تمثل كل ما أحبوه في الحياة.

يحفر المنقبون بصبر في هذه الرمال اللامتناهية، محاولين انتزاع أسرار الماضي منها. يميطون اللثام عن كنوز جديدة، ويكشفون النقاب عن صفحات من التاريخ، وثائق إنسانية جديرة بالاهتمام، ومعها يظهر المزيد من العجائب عن حياة مصر القديمة.

تابعنا نصب مخيمنا عند الغسق على حافة الأراضي المزروعة، وأمعنا التدبر بقلوب مثقلة في وضع خيامنا، لكن حاولنا إقناع أنفسنا أننا لسنا قريبين جدًّا من الكلاب النابحة والأطفال المصابين بالرمد في سقارة.

ينظر إلينا السكان المحليون بعيون لا مبالية. انهمك بعضهم في الغزل. إن أدواتهم هي نفسها تلك التي استخدمها النسّاجون في العصور القديمة عندما كان الفراعنة يحكمون مصر. مرت بنا ثُلة من الفتيات الصغيرات بخطوات مهيبة، متوازنات بغرابة وأناقة وعلى رؤوسهن جرار فخارية مملوءة بالمياه، ونساء يرتدين أردية سوداء طويلة، يمسكن بطرف حجابهن على أفواههن، يحملن أطفالاً يحطّ الذباب على وجوههم، ورجال عميان يتحسسون طريقهم على طول الطريق. يفقد الكثيرون أبصارهم في هذه الربوع، ويتقبلون العمى بصبر عجيب.

رغم حزننا لعدم تخييمنا على رمال الصحراء النظيفة، إلا أننا عزّينا أنفسنا بسجادة من السوسن الصغير البنفسجي، الذي ينمو على الأرض التي يغمرها النيل تمامًا لمدة شهرين أو ثلاثة كل صيف.

امتدّت خلفنا سلسلة من التلال، تتوجها أهرامات يغمرها ضوء القمر فتبدو في الليل مثل الأشباح الخفية. تنساب الصحراء، ويلفّها ضباب يجعل المسافات باهتة والأشكال خيالية. يخلف الغموض شعورًا بأننا عبرنا نهر "ستيكس"[١] وأننا نتجول في عالم غير واقعي.

إنها ليلة "مولد النبي"، كما يقولون. جلس البدو في أرديتهم الفضفاضة البيضاء، بلا حراك مثل تماثيل العصور القديمة، باستثناء حركات أصابعهم على النايات والمزامير الخشبية، التي تشحن الهواء وتعبقه بنغمات رقيقة وألحان من السحر الخفي.

بدأ الغناء. تحمل الأغنية وقعًا لطيفًا رغم رتابتها. تبدو وكأنها تحكي عن مساحات شاسعة من حنين لا ينتهي، جذبت أرواحنا إلى عوالم غير مرئية. انضمت أصوات أخرى إلى لحن، "يا حبيبي يا محمد"، وعلمنا من الاسم أن الأغنية موجهة إلى النبي العربي.

[١] النهر الوحيد في العالم السفلي طبقا للميثولوجيا الإغريقية، ويجري سبع مرات حول عالم الأموات. (المترجمان)

(٤)

مدينة الموتى

الأحد، ٢٦ فبراير.

في اتجاه الشرق، عاينا بعض الحفريات المتداعية والعديد من قطع الجرانيت المكسورة، وبعض التماثيل التي تشير إلى ما كان يومًا أكبر وأعظم مدن مصر، وأعني بها "ممفيس". حلّت مدن أخرى مكانها كمقر للحكم، وتراجعت قوتها وفتُر نفوذها. ثمّة من نهب كنوزها، وحتى قصورها ومعابدها. هُدمت لتزيين مدنًا استحدثت بعدها، وأرادت أن تضاهيها وتباريها. اخترقت مياه النيل السدود المتهالكة وغمرت "ممفيس". كتب أحد المسافرين في القرن الثاني عشر الميلادي:

"تحتل أطلال "ممفيس" مساحة نصف يوم سفر في كل اتجاه، وتتيح لعيون الشاخص مجموعة من العجائب التي تصدم العقل وتدهشه. ربما حاول أبلغ الرجال وصفها لكن هيهات."

إلى الغرب، وخلف التلال والتباب، تقع مدينة أخرى، قاومت مرور الزمن على نحو أفضل؛ إنها مدينة الموتى. ولأن "الصحراء تحتفظ بما تغطيه"، ونتيجة لاستقرار المباني الأكثر متانة، يمكننا أن نرى على جدران مدينة الموتى رسومًا ونقوشًا تصور الحياة اليومية لقرون مضت. هنا رقد الملوك والملكات والنبلاء، وحتى الحيوانات التي كانت تعيش في مدينة "ممفيس" العظيمة ذات يوم. اعتقد المصريون أن الروح (الكا) والجسم لا ينفصلان بعد الموت، وأن حياة الروح تعتمد على حفظ الجسد، لذلك بُنيت المقابر على أمل أن تدوم للأبد؛ بينما كانت الإنشاءات الأقل متانة تكفي للحياة القصيرة على الأرض.

في الأيام الغابرة، كان الجسد يُحنط ويُدفن في هوة عميقة، ثم تُهال عليها الرمال. يُبنى فوقها هيكل بسيط توضع فيه القرابين، بشكل رئيسي الطعام والشراب، فأصدقاء الميت يجتمعون للوليمة والصلاة وترديد الصيغ السحرية التي تحول المشاهد المرسومة على الجدران إلى واقع لتغذية الجسد. لاحقًا، زادت غرف الموتى، فجرى ترتيبها على الأرجح على غرار منازل الأحياء. في مصر القديمة قضى المرء جزءًا كبيرًا من حياته في الاستعداد للموت، أو للحياة الآخرة.

ولكن توفير مأوى دائم للجسد والروح "الكا" لم يكن كافيًا. كان على "الكا" أن تتنقل بين غرفة الدفن تحت الأرض، والغرف العلوية بحثًا عن الطعام لتغذية الجسد. لذا تعين توفير وسائل الترفيه والأشياء التي ملأت سنوات الحياة. تُوضع تماثيل تُشبه الميت بأكبر عدد ممكن في غرفة مخفية، حتى إذا تعرض الجسد لحادث، فإن "الكا" ستجد مكانًا مألوفًا للبقاء. خلال الحياة نفسها، طارد الخوف من الفناء المصريين، وأعني الخوف من المغادرة الأبدية لهذه الأرض الذهبية.

تتكرر أسماء وألقاب وصفات الموتى في كل مكان، مع التمني بالاستمرار في الحياة على الأرض. وكأن الأحياء دائمًا على استعداد لمساعدة الموتى، حتى يتمكنوا بدورهم من الحصول على الحياة الأبدية حين يحل دورهم. مرة تلو الأخرى، عاينا هذه الكلمات منقوشة على الأحجار:

"أيها الأمراء، أيها الكهنة العظام، أيها الموظفون، يا حفظة الأسرار، يا سكان المدن، يا كل من تواجد في هذا المعبد، إذا كنتم تحبون الحياة، وتكرهون الموت، أعدوا الكثير من الخبز والنبيذ والكعك، والثيران، والإوز، والعطور، والملابس، وكل الأشياء الجيدة والنقية من أجل ساكني القبور."

خُصصت المقابر للعامة والنبلاء منذ العصور المبكرة، أما الهرم فهو مقبرة الملك. وعلى أي حال تمتد كلها في الغرب مع أفول وغروب شمس الحياة من الجيزة إلى "ميدوم"، كأعظم آثار المجد التليد.

ومن أجل هذا الغرض، تم تجريد العالم الدنيوي للحصول على كل ما هو ثمين لبناء منازل الموتى وتزيينها. وللوصول إلى البعث، يتحتم إضفاء الفخامة على كل شيء: الجنازات، أردية الكهنة الفضفاضة؛ الذهب، والمجوهرات، والموسيقى، والنائحات؛ الولائم، والقرابين، والصلاة للموتى؛ والمواكب العظيمة لتمجيد وعبادة الملوك.

فككنا المخيم مبكرًا لزيارة سقارة، هذه المقبرة العظيمة. ذهبنا أولًا إلى مقبرة "تي"، رفيق الملك ومستشاره، "الذي يُدخل السرور على قلب سيده."

حين نزلنا إلى صمت المقبرة الغامض، أشعل الحارس العربي الشموع حتى يُمكّننا وهجها الواهن من رؤية الرسوم الرائعة على الجدران بشكل خافت، فهذه الغرف لا يصلها الضوء الطبيعي من الأعلى.

كما جرت العادة في تلك الأيام الخوالي، كان للرجال المهمين العديد من الألقاب الفخرية. لا نعرف شيئًا عن منصب "تي" ووظيفته على وجه

اليقين، لكن من الجلي أنه تمتع بسلطة كبيرة. يُظهره تمثاله في متحف القاهرة كرجل يتمتع بذكاء وقوة غير عاديين. مع رأسه المرفوع، يبدو وكأنه يخطو عبر العالم برمته، ويعرف كيف يحصل على الأشياء ويوظفها على أفضل وجه في هذه الحياة.

تُسمى هذه الجبانة بحق "المقبرة السعيدة". في النقوش البارزة الرائعة التي تغطي الغرف السبع لمصطبته، هناك قدر كبير من الاعتدال، والنسبة والتناسب؛ وقبل كل شيء، هناك نحت دقيق، وتصوير مثالي لكل حيوان، وطائر، وزاحف، حيث يختص كل منها بصورة فردية ونموذج في نفس الوقت. إن العبقرية التي استطاعت التقاط حتى النوع، ذكرًا أم أنثى، هي نفسها التي أنجزت هذا العمل الفني البارز قبل أن تولد حضارة اليونان. إن الطاقة الحيوية التي تبثها مقبرة "تي" تترك في نفوس الموتى بهجة وهم يدخلون العالم الخاص بهم، أو هكذا جرى الاعتقاد.

على الجدران اليوم، كما كان قبل خمسة آلاف سنة، يظهر الحمار الذي يخب، والطائر الذي يرفرف، والسمكة التي تسبح.

عمل المصريون في مصر القديمة بجد وكد في حفر وحرث وادي النيل، يجمعون الحبوب، ويحرصون على إرضاء مطالب أسيادهم التي لا تنتهي. هذا أيضًا مُصوَّر ومُمثَّل.

هنا نعاين صناعة البيرة، وإعداد الخبز، والعمل في المعادن، وبناء القوارب، وصيد الأسماك وتمليحها؛ وهنا نشاهد قطع الكتان وربطه في حزم، ووضعه على ظهور الحمير، ثم تفريغه كي تدوسه وتهرسه الثيران، ثم يبدأ الكتبة في إحصائه على أوراق البردي وألواح الحبر باستخدام أقلام الغاب. وننتقل إلى ملمح آخر، وأعني محاكم العدل التي تُعقد للفلاحين الذين يمثلون أمام الحاكم، ناهيك عن طوابير الماشية، والطيور، وقطعان الظباء، والطرائد، والصيغ السحرية، وكل ما يمكن تخزينه كطعام للراحلين.

وأما "تي" نفسه، فنراه جالسًا مع زوجته "نفر حتب" بجانبه، يشاهدان الرقص الشرقي البطيء؛ "تي" على مائدته يأكل، مع قائمة فوق رأسه تحتوي على الطعام، والشراب، والملابس، والعطور التي تحت تصرفه. هناك أيضًا ثيران قرابين لـ "تي"، وبخور لـ "تي"، وتماثيل لـ "تي"، عالم كامل مترع بالحيوية والنشاط. على مر كل هذه القرون، يضطلع كل شخص بمهمته المحددة في "مقبرة تي السعيدة" بكل حيوية وإيجابية.

رغم حرارة الشمس المتزايدة، ذهبنا إلى "السرابيوم"، مكان دفن الثيران المقدسة. مر وقت طويل من أيام "تي" إلى بناء "السرابيوم"، كما مر منذ نحت أروقته العظيمة إلى عصرنا هذا.

كانت عبادة الحيوانات موجودة دائمًا. أحاطت بنا مقابر للكلاب، والقطط، والطيور. مع مرور السنين، أصبح الدين في العصور المبكرة أكثر تعقيدًا، وازدادت الخرافات بشكل كبير. دخل الاعتقاد بأن روح الإله العظيم "أوزيريس" تتجسد في ثور، وعند موته تنتقل من ثور مقدس، أو "أبيس"، إلى آخر. أثناء حياته، حظي هذا الثور بالتقديس في معابد "ممفيس". كتب "سترابو" عن اهتمام المسافرين بمشاهدة "أبيس" يهيم على وجهه. وحين مات، دُفن "أبيس" في أقبية في سقارة، وعُبد في "السرابيوم" لمئات السنين. كان هذا المعبد مدفونًا في الرمال ومفقودًا حتى اكتشفه "ماريت"، عالم المصريات العظيم. بعض الدفائن كانت حديثة فقد تزامنت مع حقبة ملوك بني إسرائيل. على أحد التوابيت الضخمة، يوجد نقش لـ "قمبيز"، ملك فارس، الذي غزا مصر في القرن السابع. في تابوت آخر، بقيت مومياء لثور مقدس سليمة، ليجدها "ماريت"، الذي رأى عند دخوله الغرفة المغلقة، على أرضيتها الرملية، آثار أقدام آخر مصري غادر القبر منذ أكثر من ألفي عام.

كلما ولجنا في هذه الأقبية المرعبة، زادت درجة الحرارة، وفي مقابر "أبيس"، تحولت الأجواء إلى نار مستعرة، بينما تُشعرنا ضخامة هذه القاعات تحت الأرض، والليل السرمدي، والوجود القريب للموتى

العظام، برهبة لا توصف. شعرنا بالسعادة لمغادرة هذه التجاويف السفلية المظلمة والتخلص من الظلال السوداء إلى السماء الزرقاء وضوء الشمس في عالم اليوم.

سرنا وسط وهج من الحرارة التي تتذبذب في الهواء. امتدت الكثبان الرملية العظيمة إلى حد لا متناهٍ من الوحدة الصامتة، تكسرها هنا وهناك بعض التلال والوديان الرملية الشاحبة التي يشوبها اللون البني في بعض الأماكن بسبب تناثر الحجارة الصغيرة المنتشرة بكثافة على الأديم. نرى على خط السماء ما يُشبه البحيرة التي تضم جزرًا وشبه جزر. يبقى اللون الرمادي اللامع لسطحها بلا اضطراب في وهج الظهيرة، بينما تنعكس أشجار النخيل وسعفها في أعماقها الهادئة. أدركنا أن كل هذا من خيال الصحراء، أشكال وهمية وُلدت من رحم ما يُعرف بالسراب.

في مقابل السماء الزرقاء، ظهر خط أبيض رفيع، ظنناه في البداية سحابة، لكنه تغير تدريجيًا إلى لهب وردي، حيث تلتقط الشمس صدور وأجنحة طيور النحام الوردية التي تبحر نحو الغرب مثل خيط فضي، وكأنها شعلة تختفي في الأرض الغامضة التي تقع خلف الغروب، مشهد مشرق من الألوان يندفع نحو المجهول.

مررنا بالهرم المدرج، أقدم الأهرامات على الإطلاق. إلى الجنوب عاينا هرمًا حجريًا كبيرًا، يبدو وكأنه لا يقترب أبدًا. في الهواء الجاف الصافي، من الصعب الحكم على المسافة بدقة، ومن غير المجدي أن تسأل أحد السكان المحليين، فمعظمهم لا يمتلكون ساعات، ويقيسون الطريق بخطوات جمالهم وحميرهم، أو بحركة الشمس وموقعها في السماء.

بلغناه بعد الواحدة ظهرًا بقليل. هو أشبه بكتلة من النحاس الذهبي في مقابل سماء زرقاء عميقة. هذا الهرم أقل بأربعين قدمًا في القطر من منافسه العظيم في الجيزة، لكنه أقل إثارة للإعجاب، إذ إنه لا يبلغ نفس الارتفاع. بالقرب من ذلك الهرم حدانا الأمل في تناول وجبة الغداء.

وبينما نفعل ذلك، كسرت أصوات غامضة الصمت الرهيب. إنها قافلتنا، وإنه أحد سائسي الجمال يصدح بأغنية بدوية حزينة تحمل شجنًا غريبًا رغم رتابتها المروعة. بينما يختفي الرجال والحيوانات عن الأنظار في تجاويف الكثبان الرملية، يستمر الصوت في خلخلة الهواء باسم الله الخالق، ثم يعود الصمت مرة أخرى إلى الفلاة بأجوائها السرمدية.

فرغنا من الغداء، وبعد استراحة لتمكين القافلة من الوصول قبلنا إلى وجهتها، استأنفنا رحلتنا، متجاوزين هرم دهشور، الذي بدا لنا ككومة من الحجارة ترتفع فوق غابة من الأشجار. اختفت هذه الأشجار مثل الدخان عندما اقتربنا؛ سراب آخر وخداع آخر.

عند الفحص الدقيق لأديم الصحراء وأخاديدها، اكتشفنا بعض النباتات الملونة التي تنمو هناك بالرغم من ندرة الماء، وغالبًا ما ينتهي بها الحال طعامًا للغزلان أو الجمال المارة.

انعطفنا يسارًا عبر وادٍ يخترق سلسلة من التلال، فإذا بنا نعود للأراضي المزروعة: أشجار الجميز الكبيرة في الجنوب، ومجموعات من الأكاسيا، والصبار، بينما شكّل اللون الأزرق والأخضر تباينًا ساحرًا مع قبور الشيوخ البيضاء والجدران الطينية لقرية دهشور.

(٥)

يوم في دهشور

الاثنين، ٢٦ فبراير.

رغم أن الليالي الساحرة هنا مثالية للروح وتُنزل عليها السكينة والسلام، لكن الصباح آتٍ لا محالة ومعه يوم جديد. يضع الفجر رتوشه في السماء الشرقية، ويتبدل الصمت وتبدأ الحياة في الخفقان. يسود شعور بالترقب ويتخلخل الهواء إحساس بالتطلع لما سوف يحدث. توارت النجوم وانزوت مع شروق الشمس، وغمر الضوء والدفء المكان. من بعيد، أرسل المؤذن صوته بأربعة نداءات إلى الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب. يسجد العرب في الصلاة، مولين شطرهم نحو مكة، يسبحون "الله الرحمن الرحيم"، ويخفضون رؤوسهم إلى الأرض تبجيلاً وتقديسًا لـ "واهب الأشياء."

قضينا يومًا هادئًا نشاهد السكان المحليين يمرون، يحيون بعضهم البعض بالعبارة العربية التقليدية، "يومك سعيد"، ويجيب الآخرون،

"يومك سعيد مبارك". حين يلتقي صديق بصديق، يتصافحان، ويضع كل منهما يده بخفة على قلبه، ثم شفتيه، ثم جبهته كعلامة على الصداقة والاحترام. يُقال إن هذا يعني: "مشاعر قلبي، وكلمات شفتي، وأفكار عقلي لك." أصوات هؤلاء الناس عالية. عندما يجتمع عدة أشخاص، يبدو للأذن غير المعتادة أنهم يتجادلون بعنف، بينما هم على الأرجح يتجاذبون أطراف الحديث بمودة وسلام. غالبًا ما نتفاجأ بجلبة من الأصوات تتجادل وتصرخ وتتناقش. نحبس أنفاسنا منتظرين الضربات والطلقات التي لا تأتي أبدًا. هذا يذكرنا بقصة الأوروبي الذي أخذ شيئًا إلى متجر محلي لإصلاحه. فاندلع جدال بين صاحب المتجر وتلميذه، واشتد حتى أصبح صاخبًا وعنيفًا، مما دفع الأوروبي إلى سؤال أحد المارة عن سبب المشكلة. استمع الرجل للحظة وقال: "لا توجد مشكلة، يقولون، 'ممكن، ربما'." رغم أن نبراتهم حادة، إلا أن خطواتهم صامتة، ويرجع ذلك على الأرجح إلى عادة المشي حفاة أو بالصنادل العربية المُسطحة.

يتنقل البدوي في الصحراء بخطوات مهيبة. مع رأسه مرفوعًا، يخطو وكأنه يمتلك الأرض وكل ما عليها. النساء أيضًا يمشين بخطوات حرة وغير مقيدة، وفي عيونهن نظرة مسافرة إلى الأفق البعيد حيث

المساحات المفتوحة. تنحني ظهور النسوة للقدر فقط، وتواجهن الموت بلا خوف؛ لأنه عندما يأتي، يعترفن بإرادة الله، دون ندم أو خوف. تبدو نظرة الرضا الهادئ على محياهن جميلة وآسرة.

كم هو قليل ما يحتاجه البدو لإرضاء متطلباتهم البسيطة وتلبيتها: غليون، وفنجان قهوة، وقليل من الظل، وحفنة من التمر، وبعض الخبز والسكر، وماء ليروي عطشهم. لا أحد يجوع في هذه الأرض، حيث يأمر القرآن ألا يمنع أحد الخبز والملح عن جاره. وفقًا لفلسفتهم الحكيمة، تُنحى الذكريات المزعجة والمؤلمة جانبًا. العفو من شيم الكرام. إذا أخذت المحادثة منحنى مزعجًا، سرعان ما يتم تغييرها. أشعة الشمس الدافئة، والصمت العظيم للصحراء، يبعثان على الهدوء والسكينة؛ فضغوط الحياة الغربية أمر لا يعرفه هذا الشعب الذي يرتبط بحب جم للطبيعة، ويتمتع بحس رائع وقوة تركيز، ويجد سعادته في الهدوء والتأمل الحالم.

المشهد أمامنا مذهل. أشجار النخيل تمد رؤوسها نحو الشمس، تتشرب الضوء والحرارة، وتتلألأ الظلال الزرقاء والبنفسجية على جذوعها البنية المستقيمة. قبور الصوفيين البيضاء تتلألأ بانعكاسات أوبالية ووردية في الضوء الشفاف. الهواء محمل بروائح غريبة تخترق كل

شيء حرفيًا، فيبدو وكأنه ينبض بالدفء ويزهو بالألوان. هل هذا هو سحر الشرق أم شغف الحياة وألمها؟ أرض يمكن أن يحدث فيها أي شيء في أي لحظة. تحت السماء الباهتة في الشمال، سيكون اليوم طويلاً قبل أن "تنسحب الأشياء وقبل أن يتراجع الضوء ويبرد الهواء".

أرسل إبراهيم بك، شيخ دهشور، ليستجلي إذا كان بإمكانه زيارتنا. انتظرناه طوال الظهيرة دون جدوى.

الشيخ، أو العمدة، هو رئيس القرية وعميدها، ويمتلك من الأراضي نصيبًا وافرًا. قبل الاحتلال الإنجليزي، كان هؤلاء الشيوخ أتباعًا للباشاوات، وعادة ما تجبروا وطغوا طمعًا في حظوتهم. ينفذون إرادة من فوقهم ومطالبهم الخاصة على حساب الشعب العاجز.

من الصعب الآن تصديق أنه قبل بضع سنوات فقط، كان السوط، والكرباج والسخرة، والعبودية في أوجهم. تفشّى الظلم دون رادع في هذه الأرض. لا يمكن وصف انعدام الأمن على الأرواح والممتلكات. بات الفقر والمعاناة مصير الجميع. كانت البلاد تُعصر مثل البرتقالة. حتى الترع التي تعتمد عليها حياتها تُركت في حالة من الإهمال. مع وجود أعداء من الداخل والخارج، بدأت إنجلترا في محاولة إعادة البناء التي بدت أمرًا

ميؤوسًا منه. نتحدث هنا عن العمل وعن الإنجاز الذي تحتاجه دول كثيرة تضمحل. في حالتنا توافق حسن إدارة الإنجليز مع حيوية المصريين الكامنة.[1]

عبر سماء رقيقة توهج الغرب باللون الأحمر القاني واخترقتها أشعة الشمس الغاربة. هذه هي الساعة السحرية في حياة البداوة التي خبرناها، ساعة الأحلام، والصمت السعيد. تظهر النجوم في السماء العميقة؛ ومعها همهمة خافتة وناعمة لحكاية من ألف ليلة وليلة تصل إلى آذاننا حيث يجلس البدو في دائرة حول النار.

[1] تروج الكاتبة الأمريكية لنظرية إنجليزية تقول بمسؤولية الرجل الأبيض تجاه الآخرين، ومن ثم تستحل احتلال الدول واستعمارها ونهب ثرواتها. والثابت أن إنجلترا قامت بهذه الإصلاحات لا حبا في المصريين، بل خدمة لجيشها في المقام الأول ولتيسير سرقة ونقل المواد الخام إلى بريطانيا. (المترجمان)

رحَّالتان في الفيوم عام ١٩١٢

(٦)

زيارة إلى الحرملك

الثلاثاء، ٢٨ فبراير.

في الساعة العاشرة تقريبًا، وصل إبراهيم بك برفقة ابنيه وعدة إخوة وأبناء إخوة، في موكب يأخذ بالألباب.

أضاف بعض شباب الشيوخ بريقًا للموكب بقفاطينهم الحريرية الملوّنة بديعة الزخارف، وأحزمتهم المطرزة، وعباءاتهم الأنيقة، وعمائمهم البيضاء الناصعة.

يمكن للمرء أن يتعرف على العِرق المصري من الوجوه، حيث العيون المسحوبة، والجبهة العريضة، والأنف المستقيم، والذقن البارزة قليلاً التي تشبه الفراعنة؛ وأيديهم وأقدامهم الطويلة والنحيلة التي تبدو وكأنها نسخة من النقوش البارزة في معبد قديم.

اجتمعنا في خيمة الغداء مع ضيوفنا وجلسنا في نصف دائرة. استمرت الزيارة ساعة تبادلنا فيها القهوة والسجائر وكتاب يحتوي على

بعض صور الصيد، مما أثار دهشتنا بشكل كبير. في سياق المحادثة، التي نجريها بلغة عربية متقطعة من جانبنا، وبمساعدة مترجم، أشار البيك إلى أنه يمتلك قطعانًا كبيرة من الأغنام والماعز، وأن عائلته من أصول عريقة ونبيلة. وحتى لا نكون أقل منه في المباهاة، انبرينا نخبره بأننا نمتلك عددًا كبيرًا من الأبقار لا يمكننا إحصاؤه في بلادنا، وحاولنا التحدث بالنبرة التي يفهمها الشرقيون أمثال هذا البيك.

في وقت متأخر من الظهيرة، ركبنا حميرنا برفقة فضل الله واتجهنا عبر القرية لرد الزيارة. في طريقنا، مررنا بموكب جنازة. كانت الجثة المحمولة على نقالة خشبية، ملفوفة في كفن مرشوش بماء مبارك من بئر زمزم في مكة. امتد صف طويل من النائحات، بينما ردد حاملو النعش كلمات عربية عن الملذات التي تنتظر المؤمن الحقيقي في الجنة. لابد أن الميت كان شخصًا كريمًا وذا شأن نظرًا لعدد المشيعين، فضلا عن القرويين الذين انضموا إلى الجنازة، على أمل الحصول على الهبات التي عادة ما يوزعها أقارب الميت بجوار القبر.

توقفنا عند منزل كبير مبني من الطين، ومطلي بطبقة من الدهان الأبيض تميزه عن محيطه. مثل معظم المساكن المحلية، تطل الواجهة على الشارع وترتفع الجدران على نحو سامق. وأما اليد التي على الباب

فهي يد فاطمة المباركة، ابنة النبي، التي تجلب السلام للساكنين داخل المنزل. الفناء جميل جدًا، مع بئر في الوسط، وبجانبه نخلتان باسقتان تبسطان ظلهما الوارف على الجالسين.

تتمتع غرفة الضيوف برحابة وتفترش أرضيتها سجادة أوروبية ذات تصميم قبيح، بينما تُعلق مصابيح زجاجية تصميمها أكثر قبحًا في أرجاء الغرفة. وأما الجدران فمتداعية، بل ومتهاوية في بعض المواضع، ربما بسبب فيضان النيل.

بعد تناول القهوة والسجائر المعتادة، ورغم علمنا أنه منافي للتقاليد أن نسأل شرقيًا عن أقاربه من النساء، أخبرنا إبراهيم بك بأننا سنكون سعداء لو سمح لنا بزيارة زوجته، لكنه أجاب بأنها ليست في المنزل.

منزل مضيفنا أشبه ببيت عائلة؛ حيث يعيش اثنان من إخوته مع عائلاتهم في أجزاء مختلفة من المبنى. كانت إحدى الزوجات مريضة، وعندما سمع إبراهيم بك أن واحدة من حاشيتنا لديها بعض المعرفة الطبية، استفسر عن إمكانية زيارة المريضة، حيث لا يُسمح للأطباء بالاقتراب من نسائهم. سعدنا بالطبع لتقديم المساعدة بأي طريقة ممكنة. عبرنا الحوش ودخلنا غرفة مظلمة وكئيبة لا تدخلها أشعة

الشمس، ولا الرجال بتاتًا. نوافذ الحرملك كلها عبارة عن مشربيات تسمح بمرور الهواء، مع القليل من الضوء.

شعرنا ونحن في تلك الغرفة بجو من الكآبة، ربما مردها الحرمان من ضوء الشمس، وقلة التفاعل مع العالم الخارجي، إلا من خلال المشربيات. بدت المريضة بلا حياة ومتثاقلة الخطى، كما هو الحال دائمًا مع قاطنات هذا السجن. كانت سمينة بالنسبة لامرأة شابة، بدت ملامحها جميلة، لكنها حزينة. كانت الغرفة غير مفروشة اللهم إلا ببعض السجاد، والأرائك، والوسائد الموضوعة على الأرض. على الرغم من بعض الفوضى، كان كل شيء نظيفًا تمامًا. على وسادة في الزاوية، جلست عجوز ذات عينين محدقتين ونظرات ماكرة. من الصعوبة بمكان تحديد ما إذا كانت المرأة الشابة تتوجس من العجوز، أو ببساطة أرهقها وجودنا، لكن كيانها كله بدا وكأنه يتحدث عن الخوف والاكتئاب. الرتابة في هذه الحياة خلف اليشمك والمشربية هي موت بالحياة. ما يسكن الحرملك حقًا هو إهمال العلم وقلة التقدير لوضع المرأة.

بدعوة من المريضة صعدنا السلالم إلى أعلى المنزل، عبر باب يفضي إلى السطح. وجدنا هناك سجادًا مفروشًا ووسائد، حيث جلست بعض الشابات الجميلات تتحدثن وتضحكن. قمن على الفور لتحيتنا

بابتسامات ودية. كان هناك طفلان صغيران يلعبان الكرة، وقطة شيرازي جميلة تجلس في حضن إحدى النساء. كانت هؤلاء السيدات أقل من الأوروبيات في متوسط الطول. لديهن عيون بنية كبيرة وملامح دقيقة كما كن جذابات للغاية. أياديهن وأقدامهم متناسقة تمامًا، بينما جذبت الخلاخيل الفضية الثقيلة الانتباه إلى كواحلهن النحيلة. أصررن على أن نتناول معهن الخبز، ونحتسي الشاي مع البسكويت والتمر والجوز المقشر، وكلها قُدمت على صوان نحاسية.

استطعنا من موقعنا هذا رؤية أسطح المنازل الأخرى الأكثر فقرًا؛ وعاينا مظاهر الحياة فيها. في المنزل المجاور، الذي يفصله عنا زقاق، انهمكت النساء في الطهي، وعلى عدد لا يُحصى من الأسطح الأخرى كانت هناك أناس منهمكون في القيام بعمل ما. خلال أشهر الصيف الحارة، تُقسم هذه الأسطح، حيث ينام الرجال في جانب، والنساء في الجانب الآخر، للاستمتاع بالبرودة النسبية لنسيم الصحراء الذي يحل عند الغروب، ويتبدد مرة أخرى مع قدوم النهار. تمتد أشجار النخيل والصبار الخضراء خلف المنازل. ألقينا نظرة خاطفة على الصحراء، التي تغمرها الآن أشعة الشمس الغاربة. ما أشبه هذه الأشعة بالأصابع التي تدعونا إلى عالم سحري من الجمال المجهول. الصحراء تنادينا. ودعنا

الشابات الجميلات في الحرملك، وأوصلنا إبراهيم بك وإخوته وأبناء إخوته وأبنائه إلى أطراف القرية، وسط نظرات السكان الذين هرعوا إلى الشوارع لرؤيتنا. عدنا إلى خيامنا المنصوبة في الرمال الذهبية، حيث غلّف الغروب المهيب كل شيء في "أرض الذهب والغناء والصلاة."

لا شيء يفوق كرم ضيافة هؤلاء الناس تجاهنا. تمتع إبراهيم بك بسخاء الحاكم الشرقي. أرسل اثنين من رجاله لحراستنا طوال الفترة التي مكثنا فيها في منطقة نفوذه. في الحقيقة، خلال رحلتنا بأكملها كان شيخ القرية التي نخيم على أرضها يعتبرنا ضيوفه، ويُرسل حراسة خاصة لنا، كما جرت العادة، إذ يعتبر نفسه مسؤولاً عن سلامتنا، ويتوقع أن نعطيه إكرامية مقابل الخدمة.

أسدل النوم جفوننا مبكرًا. تخلينا عن تجوالنا تحت النجوم هذه الليلة، لعلمنا أننا سنشرع غدًا في رحلة تستغرق يومين عبر الصحراء التي تخلو من الماء، وأن هذه الرحلة تمتد لحوالي خمسين ميلاً إلى مقصدنا، بحيرة قارون التي تُمثل الحد الشمالي للفيوم.

(٧)
الرمال المتحركة

الأربعاء، ١ مارس.

بدأت جِمالنا التي تحمل الأمتعة تحت نير حمولة أثقل من المعتاد تئن، حيث خُصصت أربعة منها لحمل الماء في جرار فخارية كبيرة، وُضعت في شباك تتدلى من ظهورها. تتميز هذه الجرار بتصميم أنيق، ولم يتغير شكلها لعدة قرون. أُغلقت الجرار بأوراق خضراء عوضًا عن السدادات، ورغم تعرضها لأشعة الشمس الحارقة، يبقى الماء باردًا دومًا، بفضل الطبيعة المسامية للفخار.

تُصنع هذه الجرار الفخارية في قرى صعيد مصر، وتُرسل عائمة على النيل في قوارب مسطحة القاع إلى وجهاتها المختلفة. تُربط مئات الجرار معًا بأشرطة من سعف النخيل، وتُغطى بعناية بأوراق خضراء، ثم توضع طبقة ثانية من الجرار فوقها. يجلس المراكبية المحليون في المقدمة ويوجهون المراكب بمهارة عبر التيار.

تحمل هذه القوارب معظم منتجات الأرض، بالإضافة إلى الركاب، والماشية، والدجاج، والحمير، والجمال. من المضحك رؤية الجِمال عندما تضطر إلى النزول في المياه الضحلة. الطريقة التي تمد بها أرجلها الطويلة على جانب القارب، وترفع رؤوسها المعترضة عاليًا، هي درس في التردد والكرامة المجروحة. إنه مشهد رائع أن ترى القوارب ذات المقدمات العالية والأشرعة المثلثة الكبيرة تسير مع التيار، مثل سرب من الطيور الجارحة وقت الغروب بأجنحتها الخفاقة في السماء الزاهية. وفي الليل، تبدو هذه الزوارق في ضوء النجوم الخافتة، وكأنها أشباح بيضاء بالقرب من الضفاف حيث تشرئب أشجار النخيل الداكنة برؤوسها المزينة بالسعف.

في جرار فخارية عتيقة تشبه الفخار "الإتروري"[١] الروماني تجلب النساء من النهر أو الترع كل قطرة ماء مطلوبة للأغراض المنزلية. منذ زمن سحيق، اعتدن السير إلى حافة الماء والجرار على رؤوسهن، صف طويل من النسوة الرشيقات في أردية سوداء طويلة. عند الوصول إلى ضفة النهر، ترفع كل امرأة ثوبها وتدخل إلى النهر لملء جرتها. هذه الجرار،

[١] يعود لحضارة الإتروسكان التي سكنت شمال ووسط إيطاليا قبل قيام الإمبراطورية الرومانية، ويتميّز بأشكاله الأنيقة، وزخارفه المتقنة، ولونه الداكن أحيانًا.

عندما تكون ممتلئة بالماء، تزن حوالي أربعين رطلاً، ومع هذا الحمل على رؤوسهن، تقوم النسوة بتسلق الضفة الشديدة ومن ثم العودة إلى القرية، غالبًا على بعد ميل أو ميلين. يتكرر الأمر عند الغروب. في مقابل السماء ترفرف أرديتهن المتلاصقة، وأغطية رؤوسهن في الهواء، وبشموخهن وكرامتهن التي لا تُضاهى، تبدو هؤلاء النسوة مثل موكب من تماثيل " تاناجرا الإغريقية"[1] في طريقهن لأداء الطقوس المقدسة.

رغبنا في السفر وقطع خمسة وعشرين ميلاً قبل حلول الليل، ليس فقط لأن الماء عزيز جدًا، ولكن لأن جِمالنا المسكينة لن ترى طعامًا أو شرابًا حتى نصل إلى الفيوم.

سرنا طيلة الصباح عبر وادٍ من الرمال اللامتناهية، حيث توجد أكوام من الصخور الكبيرة والحجارة التي ربما تؤشر إلى معابد دمرتها بعض الكوارث الطبيعية. كسرت الأخاديد العميقة رتابة الوادي الشاسع، ومع مرور بضع ساعات، لاحت تلال منخفضة على خط الأفق.

[1] تاناجرا: مدينة إغريقية قديمة في منطقة بيوتيا (Boeotia) في اليونان، اشتهرت في العصور العتيقة بإنتاج تماثيل خزفية صغيرة، تُعرف بـ "تماثيل تاناجرا"، وكانت غالبًا تمثل نساءً في وضعيات رشيقة، بتفاصيل دقيقة وملابس منمقة.

عند الظهيرة، وعقب الخروج من الوادي، التقينا بقافلة قبيلة بدوية تضم مقدمتها رجالاً يسيرون على الأقدام، ويرتدون عباءات ممزقة، ومسلحين بالبنادق والمدي الطويلة. أتت خلفهم الجِمال التي تحمل العجزة والنساء والأطفال، ثم جِمال أخرى محملة بمختلف البضائع والأمتعة. قفزت النوق الصغيرة بخفة ومرح وهي تتبع أمهاتها، بينما جاءت الأغنام والماعز في نهاية القافلة. ارتدت النساء البراقع، لكن تمكّنا من رؤية عيونهن المكحلة، وأياديهن المخضبة بالحناء الحمراء. تقدم عربي عجوز ذو لحية رمادية، ووجه يشبه الصقر لتبادل التحيات مع "فضل الله". لمس كل منهما صدره، ثم شفتيه، ثم جبهته، تحدثا ببضع كلمات، ثم تبادلا التحية مرة أخرى على الطريقة العربية. انزوت قافلة البدو بصمت بعيدًا واختفت في الصحراء.

كان الهواء نقيًا وشفافًا بشكل رائع. من الجيد مع مرور الساعات أن نبقى على قيد الحياة. هكذا تخبرنا بذلك ظلالنا العميقة الممتدة على الرمال الذهبية. تحول أشعة الشمس المائلة الصحراء إلى عالم من الجمال الساحر. تمتد الرمال كبحار ذهبية، وتتدحرج في أمواج من البرتقالي، والأحمر، والوردي، حتى تذوب في الضباب الأزرق البعيد وسط الهواء المرتعش.

قطع طريقنا آثار عريضة، يمكن بالكاد تمييزها في بعض الأماكن. إنه طريق قافلة صنعته آثار أقدام الجمال، ومئات الآلاف من الأقدام البشرية الحافية، وهي تسير في رحلتها الطويلة من الشرق إلى الواحات البعيدة في الصحراء الكبرى.

في مسار هذا الطريق الصحراوي، برز هيكل عظمي ضخم، مع أضلاع ناتئة من الرمال. تبين أنها لجمل بائس مات أثناء المسير. عندما يسقط أحد هذه الحيوانات المسكينة على الأرض، يأخذ العرب حمولتها ويقسمونها على الجِمال المتبقية، بينما تُترك هي لتموت. عيناها اللتان تحملان اللوم تتبعان القافلة المبتعدة؛ تحاول النهوض مرة أخرى، ولكن قوتها تخونها وتسقط لتنفث أنفاسها الأخيرة في الصحراء المنعزلة. غالبًا قبل أن تخرج الروح من جسدها، تصبح فريسة للذئاب والضباع والنسور. في بضع ساعات قصيرة، لا يبقى منها شيء سوى العظام التي تبيض تحت الشمس.

بينما نسير عبر الفيافي الأبدية الصامتة، ندرك غموضها؛ وتنوعها اللامتناهي. هنا نمر عبر رمال تبدو وكأن المحيط قد انحسر عنها للتو. الآن اقتربنا من سلسلة من التلال الحمراء، حيث تستريح كائنات كبيرة وغريبة توحي بفترات ما قبل التاريخ. مرة أخرى ممرنا على خطوط طويلة

من الكثبان الرملية، التي شكلتها الرياح. في الصحراء لا توجد هواتف ولا أعمال أو حفلات. كل ما يُفترض أن يخفف من رتابة الحياة غير موجود هنا، ومع ذلك هناك كل شيء. في هذه الوحدة اللامتناهية، نصبنا مخيمنا.

(٨)

التيه في عاصفة رملية

الخميس، ٢ مارس.

في السادسة صباحًا، وقعت حادثة درامية في حياة طلبة "الفظيع". بسبب خطأ بسيط، صفع والده يده، فقام الطفل البدوي بخلع جلبابه، ورمى محفظته على الأرض، وركض في حالة من الهيجان إلى الصحراء. عاد لاحقًا بعد أن هدأت نفسه، وأدرك أنه لا يهتم أحد به أو بمزاجه.

بدأنا رحلتنا تحت سماء صافية، وحولنا الرمال الذهبية الأبدية التي ترتفع مثل أمواج المحيط، وتمتد بلا نهاية إلى الآفاق البعيدة. في هذا البحر الذهبي تتناثر الصخور والحجارة الضخمة ذات اللون البنفسجي. إلى الغرب، ترتفع سلسلة من الجبال الوردية، التي تكتسي قممها باللون القرمزي والبرتقالي تحت أشعة الشمس الحارقة. رغم عدم وجود حياة مرئية في هذه المساحات العارية، إلا أن الانطباع الذي تتركه هو الجمال الساحر والحيوية الشديدة. واصلنا طريقنا عبر مساحات صامتة، عبر

وديان من الرمال المحترقة، مرورًا بتلال ذات أشكال غريبة وملتوية، فوق سهول شاسعة من العزلة التي لا تُصدق.

أصبحت الصحراء أكثر استواءً وانبساطًا، وضربت الشمس رؤوسنا، وتلألأت الرمال تحت أقدامنا. ارتفعت الحرارة من الوادي المستعر وارتعشت، كما لو كان البخار ينبجس منها؛ تصاعدت دوامات صغيرة من موجات الحرارة في الهواء الساكن. اختفى سحر الصباح؛ الصحراء تُظهر لنا أن تحت الجمال والغموض تكمن قسوة صارمة. الطبيعة تؤكد نفسها. في قبضتها، لا نعدو أن نكون أوراقًا ذابلة. حتى الجبال تبدو غير قادرة على المقاومة؛ يتلاشى لونها وخطوطها وهي تمتد إلى قلب إفريقيا.

في منتصف النهار، وبعد خمس ساعات من السير المتواصل، شعرنا بالتعب الشديد. اعترتنا الدهشة عندما علمنا أن خيمة الغداء لم تكن على الجمل السريع، بل تُركت مع القافلة. لذا تناولنا طعامنا تحت أشعة الشمس الحارقة في الصحراء المفتوحة. ومما زاد الطين بلة هبوب الريح، تارة ساخنة وتارة باردة، تليها عاصفة رملية مفاجئة. أصر "فضل الله" على أن نترك غداءنا ونواصل السير على الفور. بدا قلقًا للغاية. استأنفنا المسير على عجل، ولكننا لم نكد نذهب بعيدًا حتى وجدنا أنفسنا في عين عاصفة رملية. اختفى كل شيء بعد بضعة أمتار. غطى

العرب رؤوسهم بعباءاتهم، ولفّوا وجوههم بعمائمهم لحمايتها. احتمينا بمناديلنا، لكن لم نستطع التنفس بسبب الرمال التي تلسعنا بشدة. وحده فضل الله، بعينيه المكشوفتين، قادنا على الطريق وقد امتطى الجمل السريع. كانت مهمته صعبة في تلك العاصفة العاتية. إن فقدان الطريق يعني ببساطة الموت للمجموعة الصغيرة. ساعة تلو الأخرى، نسير بلا هدى، خلف وقع خطوات الجمل السريع.

دخلنا في حالة من الفوضى. خبرنا الشلل والعمى والانفصال عن العالم الذي نعرفه. أُجبرنا على دخول عالم آخر مجهول لا يعرف مستقبلاً ولا ماضيًا. بضع خطوات من الزلل، وتحكم البيداء قبضتها القاسية علينا وتفنينا العاصفة. ما أشبه عاصفة الصحراء بعواصف البحر الكبير. في كليهما تتصارع قوى الطبيعة مع بعضها البعض، بينما يمثل الإنسان الحلقة الأضعف.

في قلب العاصفة، بدا أننا نسمع صوت الفالكيري،[1] وهجوم الجيوش المتصارعة، والبحور الهائجة التي تبلع السفن. تتجسد أمامنا

[1] في الميثولوجيا النوردية، اثنتان من ربات الآلهة تحمل المقتولين من الشجعان إلى النعيم الدائم. (المترجمان)

الانتصارات والهزائم، الصمت والضجيج، الأفراح والأتراح، الحياة بكل تناقضاتها.

امتطى طُلبة وعبده الصغير نفس الحمار. حين التفتنا وجدنا طُلبة بمفرده. اختفى الخادم الصغير، وكذلك الطربوش الذي كان على رأس طلبة؛ طار بفعل الرياح. ظل عبده يركض خلفه. مهمة مستحيلة، والصبي الصغير أوشك أن تبتلعه العاصفة الرملية بالفعل. اضطررنا إلى الصراخ لفضل الله لإيقاف المسيرة، ولحسن الحظ، أُنقذ الطفل.

بعد ساعات طويلة، هدأت العاصفة قليلاً، وتمكنا من النظر حولنا. رأينا عوضًا عن الصحراء اللامتناهية، واحة تسر العيون. ظهرت أشجارها من خلال طبقة رقيقة من الرمال التي ظلت عالقة في الهواء.

مثّلت الكسوة النباتية الخضراء التي ارتفعت على خط الأفق فوق بحر الرمال لنا، ما تمثله رؤية اليابسة لبحار يصارع الغرق. كانت حيواناتنا في حالة مزرية، ولكنها أخذت تتنفس الهواء الرائق وبدأت فصلاً آخر بشجاعة متجددة. كان أمامنا جزءًا كبيرًا من الصحراء لاجتيازه، لكن مظهرها تبدل. تمكّنا من رؤية آثار أقدام الرجال والجمال من جديد بعد أن محتها الريح.

كشفت حالة رجالنا عن الإجهاد الذي سببته العاصفة. بدا ذلك جليًا في جفونهم المنتفخة وعيونهم الحمراء، وشفاههم المتشققة، ووجوههم الهزيلة التي لا تزال الرمال تعلق في تجاعيدها. أشر كل هذا إلى المعركة اليائسة التي خاضوها ضد الطبيعة.

رغم أننا نجونا من العاصفة، إلا أننا شعرنا بقلق جم بشأن قافلتنا.

جلسنا مجتمعين في عربة الرمال. شعرنا بالجوع والعطش. كانت أفواهنا جافة، وشعورنا وعيوننا مليئة بالرمال. جلس البدو القرفصاء على الأرض في الوضعية القديمة التي ورثوها عبر قرون عديدة، مستسلمين للقدر، راضين بما قد يخبئه لهم. مرت الساعات ببطء. استعدت الشمس الباهتة للرحيل. مع حلول الظلام، لم تظهر النجوم لتضيء سهرتنا كالعادة. انتبهنا على أصوات عربية غليظة. شاهدنا بصعوبة أشكالًا داكنة وغير واضحة تتحرك في الليل. غمرنا الفرح حين عرفنا أنها قافلتنا. مع القليل من الصبر، حظينا بالراحة في خيامنا على حافة الصحراء، أمامنا الواحة العظيمة وبحيرة قارون.

(٩)

على ضفاف بحيرة قارون

الجمعة، ٣ مارس.

استيقظنا في صباح اليوم التالي على يوم مشرق. اختفت كل آثار العاصفة. ترامت الصحراء بتلال من الرمال الصفراء الممتدة. كانت الأجواء دافئة بسبب أشعة الشمس الذهبية. عاينا بقايا غابة قديمة متحجرة حول الكثبان الرملية العظيمة، بينما لاحت في الأفق الألوان المتنوعة للشعير الناضج والزيتون والذرة الرفيعة. أخيرًا بلغنا غايتنا، ووصلنا إلى أجمل واحات الصحراء. تمتد البحيرة لأميال عديدة. في السابق، كانت أكبر مما هي عليه اليوم. الشواطئ الشمالية التي تتخللها الآن الكثبان الرملية أنتجت ذات يوم المحاصيل الوفيرة، وكانت موطنًا لسكان مزدهرين ومجتمع من الوفرة. لا يزال هناك معبد صغير يروي قصة مجد الأيام الخوالي. اعتبر الفراعنة هذه المنطقة مكانًا لرحلات الصيد الممتعة. حين شعروا بالسأم من الحياة في مدنهم الكبيرة، كانوا يأتون إلى هنا للراحة والاستمتاع بالرياضات التي أحبوها. الآن تحيط بالبحيرة أشجار الآثل، وعلى مدى ميل تقريبًا عبر مياهها الضحلة التي

تلامس الصحراء، تظهر الأزهار الريشية الوردية والخضراء لهذه الشجيرة الجميلة. تعيش هنا الطيور البرية بأنواعها المختلفة، ويتكسب السكان المحليون رزقهم من صيد الأسماك في مياهها.

اليوم هادئ، شمس حارقة وسماء زرقاء لامعة، وهواء ساكن. مشينا لمسافة قصيرة. لم نبتعد عن المخيم، لكنه اختفى وسط هذا المحيط الشاسع من القمم الضخمة والتجاويف الغائرة. غابت البحيرة والواحة أيضا عن مجال رؤيتنا. التففنا حول كثيب رملي لنجد بدويين يقودان جِمالهما المحمّلة. شاهدناهما وهما يقطعان الأرض بخطوات متأرجحة؛ كل حركة تعطي انطباعًا بالقوة والرشاقة. بينما يمران علينا بوجهيهما الداكنين الهادئين ألقا التحية بدماثة: "السلام عليكم". هؤلاء الرجال في أرديتهم المغبرة وفي تلك العزلة والصمت البرزخي، يضربون أروع الأمثلة للاحترام الذي يكنّه المسلمون لغيرهم ممن يعتنقون دينًا مختلفًا وأدبهم الجم في التعامل معهم.

مزّق الصمت صرخة الصقر المقدس الحزين. عبر الصحراء أتى ضوء غريب، العالم الذهبي أصبح باهتًا، الحزن طفا فوق الوديان المظلمة. مرة أخرى سمعنا صوت هبة من الهواء الساخن، تتراقص على الرمال، وتتلاشى إلى العدم. تبعتها هبة أخرى، ثم ثالثة؛ الرمال تحركت بلا توقف. لف الشمس رداء زعفراني قاتم. وصلت إلى مسامعنا من الجنوب

جلجلة ريح عاتية؛ لقد عادت العاصفة الرملية، وأجبرتنا على اللجوء إلى خيامنا.

انسابت الرمال الناعمة وتسللت إلى ثنايا المكان، لتغطي كل شيء بطبقة سميكة من الغبار الناعم.

وصل غداؤنا ممزوجًا بالرمال، رغم اتخاذ كافة الاحتياطات الممكنة. سببت الرمال حرفيًا عمى لعيون النادلَين بينما يكافحان للخروج من خيمة المطبخ. تمكّنا بالكاد من الدخول بالغداء إلى خيمة الطعام. لا يمكننا إلا أن نبتسم بتعاطف مع الوجوه الهاشة الباشة لهؤلاء السكان المحليين الذين يخدموننا بصبر، ولا يهتمون بالأعباء التي تحمّلهم فوق طاقتهم. حين علقنا على الطقس السيئ، رد رشيد: "أمر الله يا سيدتي؛ هذا مقدر ومكتوب. غدًا إن شاء الله يرسل ريحًا لطيفة وطيبة."

لقد وعدنا خاصتنا وبطانتنا من البدو بخروفين عند وصولنا إلى الفيوم. في الصباح الباكر، توجه ثُلة من سائقي الجمال إلى أقرب قرية في الواحة لشرائهما، وكذا لجلب العلف الخاص بالجِمال والحمير، ولإحضار الماء للمخيم، حيث أن مياه البحيرة مالحة.

في وقت متأخر من الظهيرة، فتحنا خيامنا حين هدأت العاصفة. رأينا جِمالنا تعود محمّلة بالماء والبَرسيم. ترجّل "جمعة"، سائس الجمل

النوبي، وهو يقود خروفًا ذا ثغاء حزين، ربما على وضعه الغريب؛ يتقاضى الجمّالون ستة شلنات في اليوم، ويوفرون لأنفسهم ولحيواناتهم الطعام. نظرًا لأنهم مدقعين، فقد آثروا شراء خروف واحد وإنفاق الباقي على علف حيواناتهم، كما قيل لنا. لم نتأكد أبدًا ما إذا كان هذا الطعام الإضافي قد وصل إلى هذه الحيوانات من عدمه. قُيد الخروف الصغير وتُرك لشأنه. اتجه الخروف الأريب نحو حمولة البَرسيم التي أُنزلت للتو من فوق ظهور الجِمال. ظل يقضم منها حتى ذبه العرب. أصدر أصواتًا حزينة لبضع دقائق قبل أن يعود إلى الوليمة مجددًا. دأب على القيام بذلك حتى حانت ساعة الذبح. حينها أُقتيد بعيدًا، ليتوقف الثغاء بعدها، ويُصبح كل شيء صامتًا.

عند الغروب، سكنت الريح، وزحف الشفق؛ وسقطت الشمس البرتقالية المستديرة من السماء إلى حافة العالم. تبدل لون السماء إلى النحاسي مع خط واحد عريض يمتد عبر السماء بألوان متباينة. اشرأبت أشجار النخيل بظلالها السوداء، وتمايل سعفها المتدلي ببطء، انحنت تيجانها الأنيقة نحو بعضها البعض وكأنها تهمس بشيء ما، لكن ما هو يا ترى؟

(١٠)

الطريق إلى سنورس

السبت، ٤ مارس.

صباح بارد وغير صاف، لكن بالرغم من ذلك استيقظنا في السادسة لصيد البط على ضفة البحيرة. لا يمكن للقارب، الذي يُشبه المركب الصيني، الاقتراب من الشاطئ أكثر من عشرين ياردة بسبب ضحالة المياه؛ لذا حملنا الصيادون المحليون إلى متنه.

بدت الاستعدادات الخاصة بتجهيز القارب لاستقبالنا مضحكة. جلب العرب دلاء من الرمال وصبوها في مؤخرة القارب، ثم وضعوا فوقها سجادة بغرض جلوسنا عليها. علقنا باستمرار في أشجار الآثل بينما نجدف. برزت شبه جزر صغيرة من الرمال في البحيرة، يبني الصيادون فوقها أكواخًا صغيرة من القش والخشب لتجفيف الشباك عليها.

يرتدي الصيادون ملابس بسيطة من الخيش الأصفر الخشن. يبدون متجهمين وقساة مقارنة بالفلاحين على ضفاف النيل، وكأنهم عرق برمائي.

ذكّرتنا الأزهار الوردية لأشجار الآثل التي ترتفع من سطح الماء؛ وشكل القوارب؛ والعشش الصغيرة المصنوعة من الغاب باليابان، لكن الأغنية التي يشدو بها البحارة مصرية أصيلة، ويمكن سماعها في شتى ربوع مصر.

بط البحيرة أكثر جفاء من السكان المحليين. أخفينا القارب بين أشجار الآثل، وانتظرنا بصبر حتى يطير البط فوقنا. في النهاية، نجحنا في إطلاق النار على بطة واحدة.

عند عودتنا إلى المخيم، شعرنا بتهديد جديد تحمله الريح، لذلك قررنا الانتقال إلى سنورس على الفور، لاستبدال الكثبان الرملية بخضرة الفيوم، متناسين أن سنورس تبعد ثمانية عشر ميلاً، وأن سرعة القافلة أقل من ثلاثة أميال في الساعة. أخبرنا فضل الله بالأمر فتقبله باستسلام شرقي، وبحلول الثالثة بعد الظهر، بدأنا رحلتنا صوب سنورس.

تبدلت مشاهد الصحراء العالقة في لأذهاننا وحلّت مكانها الحقول الخضراء، والمياه الجارية، والأشجار الظليلة، ورائحة الربيع، والأشياء الخضراء النامية في أنوفنا.

وجدنا بعض الصعوبة في تحريك عربة الرمال، حيث أن الفيوم مليئة بالترع العميقة، والمسار على الضفاف غالبًا ما يكون أضيق من المسافة بين العجلات.

سنورس منبسطة ومزروعة على نحو جيد. الشعير الناضج وحقول البَرسيم التي ترعى عليها القطعان هي ثروة من الخضرة، وأزهارها في كامل تفتحها، مما يجعلها تبدو من بعيد مثل سجادة خضراء. رأينا أيضا القطن، وأشجار التين، والكروم، بوفرة. يبدو أن الازدهار يسود هذه الأرض السعيدة.

هنا وهناك، يعيش الغجر في خيام بنية مخططة، ونادرًا ما ترتدي النساء اليشمك. بمجرد رؤيتنا هرعت بعض الغجريات إلى الطريق، ووقفن يرقبننا في دهشة حتى نمر. تتمتع الغجريات بالجمال مع وشم أزرق خفيف على ذقونهن البرونزية. لديهن عيون كبيرة، وأيد وأقدام صغيرة متناسقة، وأجسام نحيلة ورشيقة. غالبا ما يزين أنفسهن بخاتم

ذهبي منقوش يُوضع في الأنف، وقلادات من العملات. ومثل جميع نساء مصر، يحملن أطفالهن على كتف واحد.

غالبًا ما تُمثل القلادات التي ترتديها هؤلاء النساء ثروة أزواجهن. يحول السكان المحليون أرباحهم إلى عملات ذهبية، ويضعونها حول أعناق زوجاتهم وبناتهم للسلامة. إذا واجهت العائلة صعوبات مالية، يأخذ الرجال بعض العملات إلى أقرب سوق ويسيلونها إلى نقود. غالبا ما ترتدي النسوة اللواتي يبدو مظهرهن وملابسهن وكأنهن فقيرات، قلادات وخلاخيل تتراوح قيمتها بين ثلاثين وأربعين جنيها.

يعلّق الناس التمائم والتعاويذ؛ لأن جميع الشرقيين يخشون العين الشريرة. يعتقدون أنه إذا نظر شخص ما إلى شيء ما بحسد، فإن الكارثة محدقة. قد تُدثّر الأم طفلها بملابس رثّة حتى لا ترميه امرأة أخرى بنظرة حسودة.

التقينا بفتاة نوبية في ثوب بسيط، لكنها ترتدي مجموعة من أصداف الكوري البيضاء على بشرتها السوداء، ليس بغرض التكلف، ولكن لتحويل أنظار العامة عنها إلى الأصداف. من ناحية أخرى من آداب السلوك عند كل عربي أن يصوغ إعجابه بغبطة لا حسد، مستخدمًا عبارة "ما شاء الله".

(١١)
جنة الله

الأحد، ٥ مارس.

تنفّس الصباح، لنكتشف مع انبلاجه أننا مخيّمون في "جنة الله على الأرض"، وسط غابة كثيفة من أشجار النخيل.

في تلك البساتين، نمت كل أنواع الزهور الجميلة والنباتات بأوراقها الصفراء والخضراء، فضلًا عن الرمان بأوراقه اللامعة وأزهاره الوردية؛ والأكثر روعة هي زهور الكركديه القرمزية التي تنتشر بوفرة مبهرة، تخطف الأنظار.

حطّت الطيور الجميلة على الأشجار: الهدهد، والعندليب الذهبي، وطيور أخرى من هذه المنطقة بألوان زاهية، ورفرفت حولنا بلا خوف. ينساب مجرى ماء في ضوء الشمس، ويأخذ طريقًا يؤدي إلى مكان لا نعرفه. شاهدنا بعض الحراس في ملابس أنيقة، مع بنادق معلّقة على

أكتافهم، يمتطون خيولهم العربية الصغيرة فوق سروج مزينة وملوّنة، ونساء محجبات ومتسربلات بالحرير الأسود الواسع، يركبن على حمير متمهلة، وصفوف طويلة من الجِمال، محملة بأثقال متفاوتة.

في مقابل خيامنا مباشرة، توجد شجرة جميز كبيرة، توفر ظلًا لبئر وقبر لأحد الشيوخ. ينمو بجانبها الخيزران، والصبار، والمشمش. جلس، كما هي العادة دائمًا، ثلة من العرب الملتحين يدخنون النارجيلة. عاينا أيضا النحل بأجنحة كسولة يبحث عن قلوب الزهور الرائعة.

حدانا الأمل في رؤية مضيفينا من الليلة السابقة، وبالفعل عند الغروب وصل الثلاثة بكوات. أجرينا معهم محادثة حية بأفضل ما نستطيع رغم أنهم لا يتحدثون أي لغة غير العربية، ولا يمكنهم قراءة سواها. عند مناقشة الرياضة، يهتمون كثيرًا بسماع أخبار صيد الطرائد، ويستمعون باهتمام كبير إلى قصص عن صيد الغزلان في غابات إسكتلندا. أحدهم يُظهر لنا بندقيته، التي يصطاد بها الذئاب في الفيوم، أو أحيانًا غزالًا في الصحراء. أدركنا أنه لابد أن يكون قناصًا ممتازًا، إذا حقًا أمكنه إسقاط ذئب أو غزال بهذه البندقية القديمة الغريبة. تحدثنا عن صيد السلمون في النرويج، والتزلج على الجليد، وبرد القطب الشمالي، والثلج الذي لم يروه أبدا. استمعوا باهتمام، وهم يرددون بجدية "ما شاء

الله"، بينما يحاولون تخيل عالمًا مجهولًا وغريبًا عنهم. إن هدوءهم، وبساطة أسلوبهم وقوة حضورهم جعل الزيارة مثيرة للاهتمام وممتعة حتى أننا شعرنا بالأسف عندما حان وقت الوداع.

سمعنا أن سنورس مشهورة بالراقصات، فأرسلنا في طلب واحدة تلك الليلة. تم إخلاء خيمة الطعام من كل شيء باستثناء مقاعدنا. بعد العشاء، جلسنا ننتظر في جوف الليل الإفريقي الهادئ. يعبأ الهواء عطر خفي ولطيف. فوق رؤوسنا، تومض الفوانيس بشكل متقطع. من خلال باب الخيمة المرفوع، أمكننا رؤية النجوم اللامعة، وأشجار النخيل ينحني سعفها المتدلي برفق مثل أذرع تدعونا للعناق. يمكننا الآن أن نفهم جيدًا لماذا في الأيام الخالية، كانت شجرة النخيل تُعبد كجسد حي لحتحور، فينوس المصرية.

فجأة، كسر الصمت صوت ستة أعراب. دلفوا إلى الخيمة في أردية بيضاء، وجلسوا بتأدب على الأرض على جانبي المدخل. اثنان منهم يحملان مزامير، واثنان يحملان طبول، واثنان يحددان الإيقاع بالتصفيق. بدأت الموسيقى هادئة مع إعادة نفس اللحن مرارًا وتكرارًا. تدريجيًا، اكتسبت قوة وزخمًا مع نغمات تشبه صفير القرب، ثم طقطقات مفاجئة تشبه الموسيقى الروسية.

على حين غرة، دخلت راقصة سنورس في رداء حريري قرمزي لامع. يزين شعرها الداكن ورود حمراء. في ذراعيها وكاحليها أساور ذهبية، خلا الكردانات المنقوشة التي تتدلى من عنقها حتى خصرها؛ فضلًا عن أقراط كبيرة تنسدل من أذنيها، وخاتم في أنفها الرقيق. عيناها الكبيرتان الداكنتان تشبهان عيون الغزلان، ولهما جاذبية وسحر وغموض من نوع خاص.

بذراعين ممدودتين تناولت بندقية ورفعتها تحت ذقنها وبدأت في الرقص. بقي الجزء العلوي من الجسم بلا حراك، باستثناء الذراعين. راحت تشير بالبندقية إلى اليمين، ثم إلى اليسار. تحافظ قدماها العاريتان الرقيقتان على الإيقاع. لا تبدو وكأنها ترفعهما عن الأرض بينما تدور ببطء في محيط الخيمة من الداخل. أحيانا ترتخي وتنزل على ركبة واحدة بمرونة شرقية عجيبة حتى ليخيل لك أن أنها بلا عظام.

قفز أحد الرجال وأخذ بندقية وانضم إلى الراقصة. طفقا يتقدمان ويتراجعان ويدوران حول بعضهما البعض. انبرى الجمّالون المتجمعون حول الباب في التصفيق على الإيقاع النابض. بدوا سعداء بشكل واضح.

قفز رجل آخر وراح يرقص بشكل جامح. بلغت الإثارة أشدها. تغيرت الموسيقى ومعها إيقاع رقص الفتاة حيث مال أكثر إلى البطء. ظل جسدها يتلوى بينما عيناها نصف مغلقتين.

تغيرت الموسيقى مرة ثالثة فأغلقت الراقصة فمها، وتصلب جسدها؛ حركت الذراعين الرائعتين المزينتين بالذهب، واليدين الرقيقتين المخضبتين بالحناء وحسب. فجأة، توقفت الموسيقى معلنة انتهاء الرقص.

حلّ التعب على الراقصة. طلبت سيجارة، ثم جلست القرفصاء على الأرض، تنفث حلقات من الدخان من شفتيها الحمراوين. تحدثت بحيوية وبصوت خفيض يشبه العندليب. تتمتع حقًا بشخصية ساحرة ولديها نظرة لا توصف. صدحت بأغنية شعبية حزينة تقول: "كلي جروح، أين الطبيب يداويني، جرحني سهم هذه العيون. يا رب، رد لي حبيبي."

(١٢)

رياض الورود في فيديمين

الاثنين، السادس من مارس،

ها نحن ذا نتساءل عن الوجهة التالية التي ستقودنا إليها خطانا في جولتنا القادمة. فقد سيطر علينا شعور بأن الوقت لا قيمة له في هذه الأرض التي يحكمها كلمة "معلش" و"القسمة والنصيب"، وتقبلّنا هذا الأمر بصدر رحب. لذا؛ فمنذ اللحظة الأولى، أبت روح الرحالة التي تغمر نفوسنا أن تضع أي خطط. لذا كنا نخيم أينما شئنا ونتجه إلى كل حدب وصوب حسبما يتراءى لنا حينئذٍ.

لقد أخبرنا أحدهم عن الورود في "فيديمين"، أو بالأحرى عن "رياض الورود" هناك! يا له من صوت ساحر يأسر النفوس كلما كررناه على مسامعنا؛ تراءت صورة الرياض الساحرة في أذهاننا. لذا فعلى الرغم من أننا سنغادر مكان إقامتنا الذي يعتبر مريحًا بالنسبة لنا، إلا أن سحر تلك

الرياض الأخاذ في "فيديمين" كان ينادينا. شعرنا وكأن روح عمر الخيام تحوم هناك؛ فقد قال ذات مرة:

وانظرْ، ألفُ زهرةٍ مع الصباح قد أزهرت،

وألفٌ أخرى تناثرت وعادت إلى التراب.

لاريب أن الشاعر الفارسي، كان سيُحبَّ هذه الأرض — أرض الورد والكرم والظلّ الأخضر — التي طالما تغنّى بها. إنها ملاذٌ للجمال تحيط به الصحراء الذهبية من كل جانب.

بدأنا رحلتنا في الصباح الباكر، ومررنا بالعرب وهم يجلسون القرفصاء تحت ظلال أشجار الجميز، يتجاذبون أطراف الحديث بوقار، ويدخنون الغليون في هدوء. أما النساء فقد انهمكن في ملء الجرار الحجرية من البحيرة، ثم وضعها على رؤوسهنّ في توازنٍ مهيب، بينما انبرى الأطفال في ثيابهم الزاهية، ينطلقون هنا وهناك كالفراشات، وعجّ الطريق بالمارّة ذهابًا وإيابًا، وكأن الحياة دبت فيه. التحقت قافلتنا الطويلة بالجموع، وسارت في صفٍّ واحدٍ منتظم.

في ذلك اليوم، ترجّل الطاهي العجوز "محمد" وسار على قدميه، فقد نشب خلاف بينه وبين "فضل الله" حول من المسؤول عن الزبدة

الرديئة التي شكونا منها. أبدى محمد استعداده لشراء زبدة جيدة بكل سرور، شريطة أن يعطيه "فضل الله" المال. فردّ "فضل الله" قائلاً إنه قد أعطى المال لهذا العجوز البائس الذي يُشبه شايلوك في زمانه، ومع ذلك لم تتحسن جودة هذه الزبدة السيئة. لذا أضرب محمد عن العمل، ورفض أن يُعدّ فطور "فضل الله"، فعاقبه الأخير وسحب منه حماره وأجبره على السير على قدميه. علمنا بذلك لاحقًا، وعلمنا أيضًا أنه ما إن غبنا عن الأنظار، حتى امتطى محمد الجمل الذي كان يحمل خيمة المطبخ ولوازمها. لذا مر الأمر بسلام، بينما ظل بعضنا ممتنعًا عن أكل الزبد.

مررنا تحت قوسٍ حجري، وتوقفنا قليلاً في السوق الذي يعجّ بالحشود الذين يتفاوضون ويتسامون في البيع والشراء، ويسيرون في صف واحد عبر الأزقة الضيقة التي تتوغل فيها أشعة الشمس المتوهجة فتبدو ذهبية اللون، بينما تتسلل في جنباتها ظلالٌ زرقاء ناصعة تُشبه في زرقتها لون البحر المتوسّط.

غادرنا المدينة، وعدنا مرة أخرى إلى الطريق. زاد عدد الركب المرافق لنا بعد أن انضم إلينا "عبد الله الجليل" الذي امتطي جملاً عربيًا سريعًا مزدانًا بالشراريب، وسرجه العالي تحفة فنية، فهو مغطى بقماش مطرّز

باللونين الأخضر والقرمزي. ومعه بندقية طويلة معلقة على ظهره مرصعة بنقوش بديعة، ويعتمر عمامة ناصعة البياض تلتف بإتقان حول طربوشه القرمزي. أوفد الباشوات "عبد الله" ليرافقنا أثناء إقامتنا في الفيوم ويوفر لنا الحماية اللازمة ببندقيته، فضلاً عن إضفاء الهيبة والوقار بوجوده. قاد القافلة وأخذ يُفسح لنا الطريق، ويصرخ بنبرة سلطوية: "هيا إلى يمينك، هيا إلى يسارك" ويلوح بيده بحزم، ليدفع الحمير والجِمال وسائسيها إلى جانب الطريق.

عاينا قصب السكر وهو يُقطّع، والحمير التي تسير الهوينى وتحمل على ظهورها أحمالًا طويلة من القصب المقطوع إلى عِيدان يبلغ طول الواحد منها نحو ستة أقدام. أما سائسوها، فقد انهمكوا في مضغ عيدان القصب الحلو، وأطلقوا العنان لحميرهم لاختيار الطريق بأنفسهم، مما جعل تجاوزهم أمرًا ليس باليسير. عندما كنّا نعاين الجِمال قادمةً بحمولاتٍ تعلو رؤوسها المتعالية، وتأخذ عرض الطريق بأسره، كنا ندرك تمامًا أننا نحن من ينبغي عليه أن يفسح الطريق وينعطف نحو حافتة.

زُيِّنت كثيرٌ من هذه الجمال بزينةٍ مطرّزة زاهية، تتدلّى منها جدائل وشراريب ملوّنة. وكان بعضُها — وهم الأكثر تبرّمًا في جنسٍ يتّسم عامّةً بالسخط — يصدر أصواتًا غرغرةً وقرقرة كالديوك الرومية، بينما كان

آخرون ينظرون إلينا بازدراءٍ واستعلاء، يحركون رؤوسهم العالية ببطء من جانب إلى آخر، وتتهادى خُطاهم برصانةٍ مترفِّعة. فجأة توقف أحد هذه الجمال، وبدا عليه الذهول لمّا رأى عربتنا الرملية —وهي أول عربة من هذا النوع تعبر الفيوم —تطلّع إلينا، ثم إلى العربة، ثم إلى الحصان، ثم إلى سعيد، بنظرةٍ متفحصة متأملة. وعندما حثّه سائسه على المضيّ قدمًا، تقدم بخطواتٍ مترددة، ثم توقف، واستدار، وأعاد النظر في كل ملمح بعناية وتأمل.

بعض الجِمال مُتفحصة، وبعضها متّقد الذكاء، ومنها ما يبدو عليه الاستعلاء، ومنها من لا يبالي، إلا إنها جميعًا تشترك في أمر واحد وهو لمحة الحزن التي تُرى في عيونها، وشعورها بالاستعلاء على جنس البشر وكأنها تستحضر مجدًا قديمًا كانت عليه قبل أن تُسخّر في خدمتهم. كأنها – في تسخيرها للبشر – تطاردها ذكرى مقامٍ رفيع كانت فيه، ثم انحدرت عنه وسُلبته. يُقال إنّه لا يمكن لأي أوروبي مطلقًا أن يُحسن التعامل مع الجمل؛

"فالشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبدًا"

سرنا بتؤدة في هذه الأرض التي تُشبه جنة عدن، حيث تنساب خفاف الجمال وأقدام العرب الحافية على الأرض في صمتٍ ووقار. تخلينا عن العربة الرملية بسبب وعورة الطريق وعدم استوائه، وامتطينا الحمير التي سارت في خُطىً متهاديةٍ تُشبه العَدْو الخفيف، وتُشعر الراكب براحةٍ وسكينة. صدح أصغر سائسي الحمير "حسان الصغير" بأعلى صوته يغني مبتهجًا أنشودته في معشوقة سمراء، ترفل في ثياب من حرير الهند. بدا جسده الصغير، برونزي اللون، تجسيدًا للرشاقة والجمال، وظل يغنّي بفرحة غامرة مثل طائر الزرزور الذي يشدو بالغناء وهو محلق في عنان السماء. لم يعرف النصب والوصب إليه سبيلًا، فبالرغم من أنه لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ومع أنه كان يسير لمسافة طويلة تحت وهج الشمس؛ إلا أن جسده النحيل تمتع بقوة تحمل جعلته يؤدي المهام اليومية بكل سهولة ويسر، فقد برهن على أنه حقًا "ابن الصحراء"، فهو ينتمي إلى سلالةٍ عاشت منذ الأزل في رحابها الفسيحة، ونهلت منها حبّ الحرية من المهد.

عندما تابعنا المسير في اتجاه الجنوب الغربي، رأينا الأرض قد اكتست بالأشجار. اجتزنا أوديةً عميقة تنحدر فيها مياه الجداول بسُرعة ومررنا ببساتين الزيتون، وأجمات النخل، وشجيرات التين الشوكي، وكانت

تظهر لنا بين الفينة والأخرى، من بعيد، لمحاتٌ خاطفة من البحيرة العظمى.

وفي ذلك الضوء الشرقيّ الساطع، شعرنا بالحسد تجاه النساء اللواتي كحلن عيونهن بالكحل؛ لأنه يُخفّف من حدّة وهج الشمس ويحمي العين من الأسقام التي يسببها الغبار والقيظ.

استمرت الشمس في صب أشعتها المتوهجة، التي بدت مثل سيول من الذهب المصهور، وأضفت على البيوت المبنية من الطين ألوانًا مبهرة، كما جعلت القباب البيضاء تتلألأ وكأنّها درر منثورة. أما الأرض فقد بدت وكأن موجات الحر ترتجف فوقها من وطأة القيظ.

لقد فاقت خصوبة هذه الأرض أحلامَ أكثر المزارعين طمعًا، إذ تُجنى منها في العام الواحد محاصيل عديدة. وكان البرسيم، الذي بلغ طوله الآن حتى ركبتنا، يُجزّ ثلاث مرات، وتنضج سنابل القمح في غضون أسابيع معدودة. إن هذه التربة، التي سقاها النيل بطميه الخصب، لم تكن تعرف ما نعدّه في بلادنا ضروريًّا من فتراتٍ للراحة. يجر المحراث في الغالب جمل، بينما تُخصص الجواميس لتشغيل السواقي. الأرض هنا مُشبعة بماء الري لدرجة أن الفلاحين يحرثونها بمحراث خشبيّ بسيط

دون كدٍّ أو مشقّة. ففي هذا البلد المُذهل، تستجيب الطبيعة بسخاءٍ مدهش لأقل جهدٍ يُبذَل، فبينما "نستخدم نحن الآلات الزراعية التي تعمل بالبخار لحرث الأرض في بلادنا، يخدش الفلّاح المصري وجه الأرض بطرف عود فحسب".

لقد عاش الفلاحون في هذه البقاع منذ زمنٍ سحيق، وقد عاينا قطعان كثيرة من الغنم والماعز. بدت الأغنام صغيرة الحجم، وبُنيّة اللون، ولها قرون وأصوافها طويلة وناعمة مثل الحرير. أما الكلاب التي تحرس القطعان، فكانت شرسة حتى إنّ مرافقينا اضطرّوا إلى رميها بالحجارة عدة مرات لكي يمنعوها من مهاجمتنا. ذات مرة شهدنا حادثًة مروّعة، فقد انقضّ أحد تلك الكلاب على ثوب "حسين الصغير" القطني، وكاد يفتك بالفتى لولا أن "فَضل الله" عاجله بضربةٍ عنيفةٍ بمؤخرة بندقيته، فانسحب الكلب وهو يئنّ ويزحف على بطنه. ولم تكد تمرّ لحظات، حتى انقضّ علينا صاحب الكلب غاضبًا، واحتدم الجدال بيننا، لكننا سرعان ما هدّأناه بدفع بعض "البقشيش".

عند الظهيرة، توقّفنا تحت الظلال الوارفة لشجرة الزيتونٍ لنتناول الغداء، بينما ظلّت خيمة الغداء مربوطة على ظهر الجمل. استمتعنا

بالنسمات المنعشة تحت ظل الشجرة بعد ما خابرناه من غبار ولهيب أثناء الطريق.

تجري الجداول الصغيرة كشبكة عبر الأرض، بينما تلقي شجرة اللَبَخ العملاقة ظلًّا أرجوانيًّا واسعًا على التراب والمياه الراقصة من تحته. تمكنا أن نلمح الطريق من موضع استراحتنا هذا، فقد كنا نراه عندما نطلّ بين جذوع الأشجار الملتوية، وهو ممتد أمامنا، يمضي فيه المسافرون، وتحمل الحمير قففًا ضخمةً مملوءة بالخضروات أو الفاكهة، وتمر الجمال المثقلة بأحمالٍ عظيمة من البضائع. رأينا حمارًا أبيض بهيُّ الهيئة، قد خضبت أذناه وذيله بالحنّاء، ورُسم على خصره نقشٌ بالحلاقة، وعلى سرجه القرمزيّ جلس رجلٌ مهيب، تدل هيئته الضخمة على أنه في رغَد من العيش.

تناولنا غداءنا، والعالم من حولنا يعجّ بالحركة، ثم غفونا في دفء شمس الظهيرة الذهبي، حتى أيقظتنا الظلال المتطاولة التي نبهتنا أنه ينبغي علينا أن نتابع المسير.

واصلنا المسير وازدادت النباتات الاستوائية كثافةً وجمالًا. غابات من التين الشوكي العملاق، وأشجار البرتقال التي تزهو بزهورها البيضاء

وثمارها الصفراء، وأشجار الميموزا والدفلى المثقلة بعناقيد أزهارها الوردية، تمتدّ على جانبي الطريق، وأشجار المشمش الرقيقة ذات اللون الفاتح، تطرح ثمارها في كل مكان. لقد كنّا نسير في عالم يُخالجك فيه الشعور بالدهشة والسحر والجمال إلى أن وصلنا "فيديمين" بسرعة ووجدنا المخيّم منصوبًا في قلب السوق، في مكانٍ يبدو أنه مخصص للقمامة المتراكمة منذ قرون. حتى الحدائق المحيطة به لم تُخفف من قُبح المكان الذي تحت أقدامنا.

نظر السكان إلينا بتجاهل ولا مبالاة كما هو المعتاد لدى الشرقيين. اعترتنا الدهشة عندما رأينا دجاجًا يرفرف بجناحين عليهما ريش، وسائر الجسد منزوع الريش، كأنّه أُعدّ للطهي! إلا أن هذه الدواجن كانت تتجول فرحة كما لو أنّ شيئًا لم يكن، غلب على ظننا أنها مصابة بداءٍ غريب، لكنه غير مؤلم. لذا مضت أيامٌ عديدة قبل أن نجرؤ على تناول الدجاج مرة أخرى.

بعد ذلك، تجوّلنا في الشوارع الضيقة غير المستوية، التي تعج بالحشود التي تمشي الهوينى وتتحرك ببطء ويتناوب عليها العديد من المارة تارة تلو الأخرى. تمرّ النساء بأرديتهنّ المنسدلة، وهن حافيات الأقدام، يحملن الحِزَم على رؤوسهنّ برشاقة مُذهلة، وتلمع عيونهنّ

الداكنة خلف البرقع الذي ينسدل على وجوههن ويثبّت بين العينين بقطعةٍ صغيرة من الخيزران توضع على الأنف.

رأينا الأطفال بثيابهم الزاهية ذات الألوان المتعدّدة يتنقّلون بخفة كفراشاتٍ مرحة، يضحكون وتتعالى أصواتهم المرحة مما أضفى جوًا من البهجة والسرور.

مرّ بنا ساحر أفاعٍ، ورمقنا بنظراتٍ فاحصة. عاينا مكتبة صغيرة تقبع في ركن هادئٍ على طرف الطريق. بدا أن صاحبها، الذي يرتدي نظّارات كبيرة، حاجًا؛ فقد أدّى فريضة الحجّ ويحق له ارتداء العمامة الخضراء المقدسة.[1] بدا أيضًا أنه رجل ذو علم ومعرفة؛ فقد كان يكتب الرسائل لمن لا يعرفون القراءة والكتابة من أهل البلدة. وقف بجانبه زبون يمليه رسالةً، بينما انخرط الرجل ذو النظّارات يُخلّد كلماتها على الورق.

عاينا في الجانب الآخر من الشارع مقهًى صغيرًا يجلس فيه الزبائن على حصائر من القش، يحتسون القهوة، ويدخّنون، ويسترخون في نعاسٍ هادئ، وكأنّ الوقت خُلق للنوم والمتعة فقط. عند حلول الليل،

[1] يبدو أن الكاتبة تقصد أنه من الأشراف. (المترجمان)

يأتي الحكّاء ليسرد عليهم قصة بطل شعبيّ، فيتراصون حوله في حلقة دائرية، يصغون بشغفٍ وإنصات لبطولاتٍ الماضي ومآثره الجليلة. فالعرب يعشقون الاستماع إلى القصص الجيّدة، ويُجلّون فنّ السرد، ويمنحونه مكانة عالية في وجدانهم.

ولكن أين هي رباعيات عمر؟ لحسن حظّه، أنها ليست هنا.

عاينا في الجوار حديقة خضرة تبعث على السرور، فتسلّلنا بصعوبةٍ عبر سياج الصبّار، حتى وجدنا أنفسنا داخل "حديقة فيديمين" التي كنا نتوق إلى رؤيتها، إلا أننا شعرنا بخيبة أمل لأننا لم نجد مكانًا نجلس فيه أو نستريح؛ فالأرض في بعض المناطق رملية أو طينية بسبب الريّ، إذ نادرًا ما تهطل الأمطار هنا، والنباتات تعتمد على ما تجود به قنوات الريّ التي تشقّ الأرض. يا لها من حديقة غناء! فبها الصبّار، والتين الشوكي وبعض الشجيرات الصغيرة والحشائش. في بعض قنوات الري كانت الأرض لا تزال رطبة وعلى حافة الأرض تعثرنا في أشواك التين الشوكي التي شجّت أطرافنا ومزّقت ثيابنا. لم تكن هناك ورود ولا زهور.

غمرتنا السعادة عندما سمعنا أصواتاً مرِحة، ورأينا خلف السياج رجلاً يتسلق جذع نخلةٍ ويقطعُ سعفَها ويقذفها لامرأةٍ تقف أسفل

النخلة. كانا يعملان بجدّ واجتهاد، ويتحدثان بمرح وسرور واستمر الأمر كذلك حتى اقتربنا منهم.

بادرهم "فضل الله" ـ دليلنا ـ بالكلام، فردّوا عليه بودٍ، ونظروا إلينا باهتمام يشوبه الوجل.

يُزرع النخيل بكثافة في هذه المنطقة، وتمتد بساتين النخيل على مرمى البصر، وهو مشهد يسرّ القلب العربيّ. ولعلّ النخل هو خير ما جادت به الطبيعة على مصر؛ فجذوعها تُستخدم في البناء في أرضٍ تكاد تخلو من الخشب، وثمرها غذاء مفيد، كما يُصنع من سعفها السلال، ومن أليافها تُصنع الحبال والشباك والحصائر.

يُطلق العرب على النخلة المؤنثة اسم "نخلة"، ويخصّونها بعاطفةٍ ومحبّة، أما النخل الذكر، فيكفي لتلقيح عدة نخلات، ويمتدّ عمر النخل لقرونٍ متعاقبة. فإذا بدت علامات الذبول عليها، وتوقفت عن إنتاج التمر، فصدّوها (شقوا جذعها) كما يُفصد المريض، وغالبًا ما تُثمر هذه المحاولة عن نتائج أفضل ممّا يُحقّقه الأطباء. أما إذا استعصت ولم تُثمر، فإنهم يلجؤون إلى علاجٍ أكثر شدّة، فيقطعون رأسها، والمدهش أن هذا يجعلها تُنبت فروعًا جديدة تحمل الثمر من جديد. تتحمّل

النخلة أن تُقطع رأسها مرّتين، أو ثلاث، لكنّ لصبرها حدودًا، ونادرًا ما تنجو بعد المرة الثالثة.

لم نرغب في الاستكشاف أكثر من ذلك، لذا عدنا أدراجنا وحرصنا على أن نتحاشى الطين والأشواك، وسرنا ونحن منحنون تحت أغصان النخيل المنخفضة. عندما عدنا، وجدنا أنّ العمدة قد دعانا لننقل مخيمنا إلى إحدى حدائقه. فسألناه ونحن يحدونا الأمل: "هل فيها ورود؟" فأجاب: "لا. ربما بعض شجيرات الورد، لكن لا ورود الآن؛ فما يزال الوقت مبكرًا."

شعرنا بالإنهاك ولم نقوَ على الحركة من شدة التعب، وفي تلك اللحظة، ظهر "رشيد" وهو يحمل في يده قبضةً من ثمارٍ صفراء صغيرة. فإذا بها نوعٌ لذيذ من الليمون الصغير، طعمه سائغ، فيه مذاق خفيف من نكهة الليمون لذا، كما حدث مع الكثير ممن جاءوا قبلنا "قطفنا ليمونًا في البستان الذي ظننا أن الورود تنمو فيه".

انبعث صوت نايٍ عربيّ، عذبٌ وشجيّ، يحمل نغمةً مألوفة من داخل الحديقة. تتبعنا الصوت حتى وجدنا العازف فتى لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر، بدا على وجهه الذكاء المتقد وأخذت عيناه

الداكنتان الحزينتان تحدق فينا بنظرةٍ غريبة ومبهمة. بدا الفتى فقيرًا للغاية فقد ارتدى ثوبًا قطنيًا لونه أزرق باهت. حاولنا أن نعطيه بقشيش إلا أنه أذهلنا وتجاهل الأمر تمامًا، ثم اكتشفنا أنه كفيف، لا يمكنه أن يستمتع بنور النهار الذهبي، ولا روعة الليالي المرصّعة بالنجوم، فهو يعيش في عالمٍ من الظلال والموسيقى الشجيّة الحزينة، هذا هو عالمه.

منظر الغروب هنا خلاب، فالسُحب الوردية الناعمة تنسدل على صفحة السماء الزرقاء وخيطُ الهلالِ الرفيع يُطلّ بخجلٍ من خلف ضبابٍ ورديٍّ خفي. بينما كنّا نعاين المشهد تغيرت ألوان السماء الغربية واحمرّت كلون اللهيب، ثم خفّ توهّجها وتحولت إلى لون ورديٍّ مُشرق، ثم تغيرت إلى اللون الأرجواني، ثم إلى الأخضر الباهت. استمر هذا المشهد الساحر لمدة ساعة حتى غابت الشمس تحت الأفق. بعد ذلك، أصبح لون السماء أزرقًا شاحبًا وظهرت نجمةُ المساء ولمع ضوءها الذي أضاء الأرض من حولنا. قيل إنّ ضوء النجوم في مصر أقوى وأشدّ سحرًا من ضوء القمر في بلاد الشمال.

أفسد عواء الذئاب التي غزت الحديقة وأخذت تسرح وتمرح فيها سكون الليل، فقد كانت أعدادها وفيرة، وكان من العسير القضاء عليها نظرًا لكثافة الأدغال التي تحيط بالمكان.

إن ما زاد الأمر سوءًا وأزعجنا أكثر من الذئاب، هو صوت الطلقات التي دوّت طَوال الليل، فقد ظنّ حارسنا، ومعه نصفُ أهل القرية، يطلقون النار وكأنّهم يواجهون عصابةً من اللصوص أو الغزاة. وما زاد الطين بلة هو صياح الدجاج وقوقأته، إذ راحت أعشاش الطيور تضجّ وكأنّها تُشارك في المعركة!

استمرت الكلاب في النباح طوال ذلك الليل الصاخب. وعندما اقترب الفجر، سكن كلّ شيء، وساد هدوءٌ مهيب، حتى انبعث صوت رخيم، إنّه صوت المؤذّن يدعو المؤمنين إلى الصلاة في جوف الليل. فقد حان وقت العبادة، فارتفع الأذان ليبشّر بميلاد يوم جديد.

(١٣)
المدينة

الثلاثاء، السابع من مارس

نفضنا عن أقدامنا – بكلّ ارتياح – غبارَ سوق "فيديمين"، ونحن على يقين أننا عند عودتنا إلى برودة الواقع والركض العبثيّ في دوّامة الحياة المعاصرة، سيُمحى هذا الغبار من ذاكرتنا.

ستظل تلك الحدائق، بما فيها من أزهار رائعة، وثمار وارفة، وعبير ثمار البرتقال الذي يفوح عبقه في الهواء الدافئ، وغروب الشمس المتّقد، تُنادينا في الأحلام، تدعونا إلى العودة إلى هذا العالم الساحر الذي يذخر بالبهجة الغامرة والرضا التام في جوه المشرق.

غادرنا الحدائق وبدأ الطريق يزداد انحدارًا. دلفنا إلى طريق ضيّق ومتعرج لعدة أميال، يمرّ عبر جادّةٍ مهيبة من النخيل الذي تنتصبُ جذوعُه المستقيمة على الجانبين وكأنّها صفوف أعمدةٍ شاهقة، يتلاقى سعفُها العالي في سقفٍ نباتيّ بديع، وتتسلّل من خلاله، في مواضع متفرّقة، أشعّةُ الشمس المتألقة، فتلقي ظلالًا أرجوانيةً على الجذوع،

وعلى الأرض ذات اللون الأحمر. تمتد الحقولُ المشرقةُ بأشعة الشمس على كلا الجانبين، وتحدها أشجار النخيل. وقفت شجيراتُ المشمش المزهرة، بثمارها الزهرية الناعمة، في تألق شديد، أمام كتلٍ كثيفة من الخيزران الأخضر الفاقع.

خرجنا أخيرًا من هذا الطريق الملتفّ بين النخيل، وعبرنا جسورًا تمتدّ فوق فِجاجٍ تجري تحتها المياه، وتنعكس عليها صور الأشجار الباسقة.

مثّلت جوانب هذه الأخاديد موئلاً مثاليًا للأزهار؛ إذ زيّنت أعناقٌ صفراءُ من زهور "الساكسيفراج" (كاسر الحجر) منحدراتِ الصخور، وتدلّت أزهارُ "الأقحوان" الحمراء والقرمزية والبنفسجية بألوانها الزاهية وخيالها الغريب على الصخور الرمادية الهامدة، بينما أطلت سرخسيّاتٌ نادرة من كل شقٍّ وثُلمة، وخلقت أشجار "الميموزا" الشائكة عالمًا خياليًّا من الظلال الخضراء الزمرّدية.

على حافة الجدول، جثت النساء ليغسلنَ ثيابَ بيوتهنّ، بينما ظل أطفالهنّ الصغار من ذوي البشرة البنية يركضون عراةً على ضفة الجدول. وبالقرب منهنّ، رأينا الجاموس وهو يسبح ولا يظهر منه سوى خطمه الأسود فوق سطح الماء، بينما حاول صاحبه الواقف على الضفة جاهدًا

لكي يُخرجه من الماء تارة بالتهديد، وتارة أخرى بالتوسل، ولكن دون جدوى.

عاينا على الطريق الترابيّ رجلًا وامرأة يسيران وقد أضناهما التعب. كان الرجل يعرج وهو يمرّ بنا ويحدق في الفراغ، دون أن يُبدي أيّ بادرة تُعرف. أما المرأة فقد جاءت خلفه وهي تترنّح ببطء، تئنّ من ثقل الطفل المريض الذي تحمله بين ذراعيها، وجهُها مكشوف، وثيابها السوداء تجرُّها الريح وتمسح بها الغبار دون أن تأبه. سمعنا أنين الطفل المتألّم. لقد قطع هذان الوالدان المسكينان الطريقَ أيامًا طوالًا، سعيًا إلى ضريح "سيدي علي"، وليّ الأطفال وحاميهم. يحكي لنا التاريخ أن هذا التاجر المشهور أحبّ الصغار حبًّا جمًّا، لذا يأتي العرب إليه ويضعون بين يديه فلذة كبدهم، وكلهم رجاء أن يكون لهم عند الله شفيعًا.

رأينا أيضًا الإوزّ المصري للمرّة الأولى يمرح في القرى وعلى حوافّ الترع.

يبدو أن صناعة القِفاف رائجة هنا؛ فقد رأينا العديد من النساء تجلسن في مقدمة البيوت وأمامهن كومة من أوراق الخيزران المشقوقة، ينهمكن في جدلها وصنعها، بينما لمحنا نسوةً أخريات يعملن على أنوال

صغيرة ينسجن بها. رأينا أيضًا رجالًا يرتدون ثيابًا قطنية زرقاء زاهية يغطّون الأسقف بالقشّ، وهم يردّدون أثناء عملهم: "الله، الله". أما الأطفال والكلاب والغبار، فقد كانوا حاضرين كعادتهم ولم يفارقوا المشهد.

ترتفع أبراج الحمام برؤوسها المربّعة فوق أشجار النخيل والقصب، وهي منتشرة في أرجاء مصر كلها، وتبدو آسرة وخلابة، خاصة حينما ترتفع أبراجها -مثل ما نراه اليوم- بين الأشجار والأجمات الخضراء. في بعض الأحيان تبدو وكأنها حصون ضخمة تهيمن على القرية بأكملها، لما لها من حجم كبير.

يُباع الحمام بكميات كبيرة ليس لأنه يعد نوعًا من أنواع الطعام فحسب، بل لأن ذرقه يُعد سمادًا غنيًا. لقد عُرف الحمام الزاجل في مصر منذ عصور، ولعله كان الوسيلة التي تنتقل بها الأخبار في المناطق النائية بهذه السرعة العجيبة.

أما "عبد الله" الجليل، فقد عاد ليتقدَّم الركب مرة أخرى، وخلّف وراءه أثرًا من الغبار. لم نرض بهذا الأمر ونحن في العربة الرملية، لذا حثثنا حصاننا على العدو. وكلما أسرعنا، أسرع الجمل الذي يمتطيه "عبد الله"

الجليل، واشتدّت كثافة الغبار. دارت بيننا مطاردة طويلة متقاربة، حتى تمكّنا أخيرًا من التقدُّم عليه بمسافة كافية لنُوصِل إليه فكرة أننا نُفضّل أن نكون في المقدمة. بقي أنف جمله خلف أكتافنا، وكلما التفتنا إليه، حيانا "عبد الله" بإيماءة جمعت بين الإجلال، والحيرة من فعلتنا هذه.

عند دخولنا المدينة، تركنا مرةً أخرى ل "عبد الله" الجليل زمام الأمور وسمحنا له أن يتقدّم الركب كما اعتاد.

هذه هي مدينة الفيوم التي تُعدّ المركز الرئيس في المنطقة. وهي مدينة جميلة من حيث التكوين المعماري والمنظر العام. يقطع المدينة نهر يمر في وسط الشارع الرئيسي، وينحدر في مجرى عميق، وعلى جانبي الطريق تقع منازل لونها أصفر ووردي وأزرق.

تمكنا من رؤية بعض الأفنية الداخلية التي تحوي أشجارًا خضراء وشجيرات مزهرة من خلال بعض الأبواب التي كانت نصف مفتوحة. بدت بعض البيوت مثل الطراز الأوروبي في البناء، فشُيّدت منازل بدرجات عالية وسياجات حديدية مائلة على نحو غير متّسق، إلا أن معظمها ظلّت على طرازها الشرقي، بشرفاتٍ بارزة تحجبها مشربيات خشبية، تسمح لأهل الدار أن يروا العالم الخارجي دون أن يراهم أحد.

تساءلنا هل من الممكن أن تكون هناك نساءٌ شرقيات جميلات يراقبننا من وراء تلك المشربيات، ونحن نمر من هنا ويحسدننا على ما نتمتع به من حرية؟

لفت انتباهنا منزلٌ بدا كأنّه في نوعٍ غريب من الحداد، حيث غُطّي بأمتارٍ طويلة من القماش الأسود التي تدلت من أعمدةٍ طويلة، وأسدلت على المدخل، ووقف أمامها رجلٌ ذو بشرة داكنة يرتدي جلابيةً سوداء، ويتكئ بيديه—اللتين كانتا أشدّ سوادًا من وجهه—على عصًا طويلة. لم ندرك في بادئ الأمر أنّ المكان ورشةُ صباغة.

تدفّقت الجموع من حولنا كالسيل: جمالٌ محمّلة وأخرى بدون أحمال، حميرٌ من كل صنف، بعضها مزدان بأبهى الزينة، يمتطيها ركاب ذو شأن، وأخرى أقلّ حظًّا، تنوء بالأثقال التي تحملها. عاينا حمارًا ضخمًا رمادي اللون يجرّ عربةً بدائية تُشبه منصةً مربعةً على أربع عجلات، وبها ثلاثة نساء محجبات من عامة الشعب، جلسن القرفصاء وإلى جوارهنّ جلس طفلان صغيران في وقار مهيب، وكأنهما تمثالين صغيرين لبوذا.

يجتمع هنا كل ألوانُ الناس وأصنافهم؛ فقد رأينا النوبيين السُّود، والنساء اللواتي تتزيّن بخواتمَ أنفيةٍ ثقيلة. والبشاريون[١] ذوي الشعور المنتفشة مثل أعشاش الطير، أو التي تُضفر إلى عشرات من الجدائل الصغيرة المدهونة بزيت الخروع. والفلاحون القادمون من القرى النائية للتجارة، واليونانيون، واليهود، والجنود، والباعة الجائلون، والدجالون سحرة الأفاعي، والباشوات، وسيدات من الحرملك ترتدين اليشمك الأبيض الشفاف الذي يُظهر جمالهنّ (إذا كن فاتنات) بدلًا من أن يُخفي وجوههن. وأخريات يضعن البرقع الذي يثبت بعصا من الخيزران على الجبهة، ويحجب الوجه والشكل تمامًا.

عاينا أيضًا باعة الليمون والشربات وهم يعتمرون عمائم مبهجة ويرتدون جلابيب زاهية ومآزر فاقعة الألوان، ويحملون جرّاتهم النحاسية الضخمة التي تلمع لمعانًا براقًا، ويقرعون أكواب الشرب النحاسية "كالصنوج" لجذب انتباه الجمهور. شقت العربات[٢] التي لم نرَ مثلها منذ أن غادرنا القاهرة طريقها وسط الحشود، يقودها السائقون

[١] البَشَاريّون هم إحدى القبائل النوبية الأصلية. (المترجمان)

[٢] عربات صغيرة للإيجار تُشبه عربات فورد فكتوريا الأمريكية. (المترجمان)

بتهور ولامبالاة، ويرفعون أرجلهم عاليًا فوق رزم البرسيم الأخضر الذي يطعمون به خيولهم كلما توقفوا.

ظهرت لنا فتاة صغيرة حافية القدمين، تحمل جرة فخارية متزنة فوق رأسها، وابتسمت لنا وهي تقف على مدخل باب. بينما طلب ثلاثة رجال البقشيش، لا بإلحاحٍ كما في الأماكن التي يكثر فيها السائحون، بل بروحٍ ودودةٍ مازحة.

تفخر مدينة الفيوم بوجود نُزُلَين يونانيين وثكنةٍ عسكريةٍ أنيقة، بها جنود مهندمين، ويُوحي مظهرهم بالانضباط.

إن البون شاسع بين هذا المشهد وأيام الحكم القديم! حين كانت الجيوش أقرب إلى التمرد منها إلى الطاعة، وإلى الفرار منها إلى القتال، ما لم تدعمها فرق أكثر تمرسًا. لم تكن يومًا تلك الجيوش سندًا قويًا في الدفاع عن البلاد. لذا ليس من العجيب أن يُكتب فوق باب الثكنات: "من دخل هنا فقد الأمل". كان الجندي يعلم، ساعة تجنيده، أنه لن يرى بيته ثانية، إلا إذا عاد منهك الجسد، عبئًا على من حوله. أما الآن، فقد تغيّر الحال كثيرًا: فقد أصبحت هناك رواتب منتظمة، وأماكن إقامة جيدة، وانضباط. بعد ثورة "عرابي"، حل الخديوي الجيش المصري

القديم عام ١٨٨٥. وعندما تولّى الإنجليز مهمة إنشاء جيش مصري قوي، بدا الأمر في نظر الكثيرين بالغ الصعوبة.

يعود هؤلاء الجنود ذوي القامات المنتصبة إلى أسرهم بعد قضاء خمس سنوات في الخدمة الإلزامية، ثم لا يلبثون، من منظور غربي، أن يعودوا إلى صورتهم المصرية الأصلية مهما بدا فيهم من ذكاء أو شخصية واعدة. يتكرّر نفس المشهد عبر العصور: فدائمًا ما تشكل مصر المصري على صورتها. أما أولئك الذين وقعوا في هوة التقليد الأعمى وتبنوا مبادئ "أرض اللاهوية" — أرض الطربوش المستعار و"الأفندية" المتكلفة — فقد صاروا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كقوم لاودكية،[١] ثم اندثروا من على وجه البسيطة، فلا نرى أي منهم ممثلًا على النقوش الجنائزية القديمة، ولن يشهده العالم في المستقبل البعيد. أما بالنسبة للجيش

[١] وهي مدينة يرّجح أن مؤسسها أنطيوخوس الثاني (٢٦١-٢٤٧ ق.م.) وقد أطلق عليها اسم امرأته. وكانت في ذلك الزمان من المدن الرئيسية في مقاطعة فريجيا باكاتيانا في آسيا الصغرى. ورد ذكرها في سفر الرؤيا من الكتاب المقدس، وتحديدًا في الرسالة إلى الكنيسة في لاودكية، التي وُصفت بأنها: "لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا! هكَذَا، لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلاَ أَنْتَ بَارِدٌ وَلاَ حَارٌّ، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي" (سفر الرؤيا ٣: ١٥-١٦). (المترجمان)

فقد كانت الفائدة عظيمة، فمن ذا الذي لا يقدر ما بُذل من صبرٍ وتفانٍ في سبيل تحقيق هذا الإنجاز؟

"حوّلوا الرجل الأسود أبيضَ،

وجعلوا من المومياء محاربًا،

لكن المعجزة الخالدة ظلت على حالها."

بينما كان "محمد" الطباخ يتسوّق، زرنا البازارات، التي كانت تشبه إلى حد بعيد أسواق القاهرة، ولكن على نطاقٍ أضيق. فالشوارع ضيقة وغير مستوية، بعضها مكشوف تحت السماء، وأحيانًا تُغطّى بعوارض خشبية وقطع من الحصير، تتسلّل من خلالها أشعة الشمس، فتضفي ضوءًا خافتًا وباردًا.

يجلس العرب في حوانيتهم الصغيرة التي تُشبه صناديق الشحن الكبيرة المفتوحة من الأمام، يعملون، ويدخّنون، ويتجاذبون أطراف الحديث في أناةٍ وارتياح، ويعرضون بضاعتهم لإغراء المارة للتوقف والشراء.

تجوّلنا في بازارات الذهب والفضة، حيث الخلاخيل، والعقود، وخواتم الأصابع والآذان والأنوف، والمشغولات الصغيرة ذات التصاميم الغريبة ذات الطراز الشرقي. جلس التاجر القرفصاء، متأنقًا في صديريته الحريرية ذات اللون الكهرماني، وردائه الخارجي الرقيق اللون، وعمامته المخططة المصنوعة من الحرير في غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرة أقدام مربعة. لم يُؤذن لنا بتجاوز عتبة متجره، بل جلسنا على حافة الأرضية المفروشة بالسجاد، المرتفعة قليلاً عن مستوى الشارع. قُدمت لنا أكواب القهوة التركية ودار بيننا جدال طويل حول السعر، حتى تمّ الاتفاق أخيرًا، واختُتمت الصفقة بعبارات كثيرة من السلام والتحية.

تجولنا في حوانيت الجلود، التي ذخرت بألوان الجلود الزاهية التي عُلقت في كل مكان، وشكلت صفًا طويلاً من الألوان المتغيرة كألوان المشكال. ووجدنا هناك كذلك نعالًا بأحجام شتى وأشكال متنوعة، إلى جانب حذاء صغير من المخمل مطرّز باللؤلؤ، بدا أنه مُعد لإحدى المحظيات في الحَرَملك.

في طريقنا إلى سوق السجاد، رأينا ساقي المياه وهو يحمل قربة الماء المصنوعة من الجلد ويركب حمارًا بنّي اللون، بدت هيئته رائعة، فتوقفنا لالتقاط صورة له، فغمرته السعادة من إطرائنا له وانفرجت أساريره

ضاحكًا. عاينا أيضًا امرأة جميلة ترتدي يشمك أبيض اللون وشفاف للغاية، أرادت هي الأخرى أن نلتقط صورة لها. بعد ذلك مررنا بسوق الخيام، ثم بلغنا بوابة حجرية قديمة مزخرفة بنقوش دقيقة، وتؤدي إلى زقاقٍ مظلم. تبين أن هذا هو سوق العطور، حيث يُجمَع رحيق أزهار الشرق ويُعبأ في قوارير زجاجية رفيعة. وسط تلك العطور الذكية، جلس عربيّ القرفصاء يتلو القرآن الكريم، وهو يتمايل بانسجام مع الآيات الجميلة، ويرتلها بصوت عذب وهادئ. وخلفه في الحانوت المجاور، رجلان يلعبان الشطرنج، وإلى جوارهما طفلة صغيرة تجلس في صمت مهيب، ويُضفي ثوبها البرتقالي وهجًا يُضيء عتمة المكان. رأينا ظلالاً لأشخاص يمرون وهم يرتدون أثوابًا منسدلة تمرُّ بخفة عبر الزقاق الضيّق، ويتبادلون التحية الآسرة: "السلام عليكم".

يا له من سحرٍ مريح يعم أرجاء المكان بأسره. فبالرغم من أن زهرة اللوتس لم تعد تُزهر، إلا أن هذه الأرض لا تزال هي أرض اللوتس، تذخر بسَكينة حالمة، ويحيا أهلها في سكون هادئ، وتسليم للقدر، وعدم اكتراث بالماضي أو خوف من المستقبل، ولا يأبهون لمرور الزمن.

تركنا هذا العالم الغامض على مضض، كأننا نخرج من حلم لإحدى ليالي ألف ليلة وليلة، وعدنا إلى الشوارع الصاخبة المكتظّة.

اتّجهنا شرقًا، فعبرنا نهرًا يُعدُّ فرعًا من بحر يوسف، أحد بقايا آثار المصريين القدماء، الذي لا يزال يمدّ الفيوم بالماء من خلال فتحةٍ في الجبال بالقرب من بني سويف.

عُبد الإله "سوبيك"[1] إله الفيوم هنا قبل آلاف السنين، وكان له معبدٌ عظيم في مدينة شُبيك (الفيوم حاليًا)، تُقام به طقوس غريبة في الماضي.

احتفظ المصريون قديمًا بعدد من التماسيح في بحيرة مخصصة تكريمًا للإله "سوبيك"، يُزينونها بالمجوهرات، ويعلقون الأقراط في آذانها، ويطوقون قوائمها بأساور ضخمة، بينما كان معجبوها يطعمونها العسل والسمك المقلي، إلا أن هذه التماسيح المسكينة كانت – على الأرجح – تتوق إلى أن تلتهم أحد الكهنة السِمان الذين يخدمونها! أما الآن، فقد زال المعبد، واندثرت التماسيح، وغاب الكهنة عن الوجود. لكن لا يزال في "كوم أمبو" بصعيد مصر معبدٌ مهيب مكرَّس للإله "سوبيك"، حيث ترقد مومياوات التماسيح المقدسة في مزار خاص بالقرب منه.

[1] سوبيك هو إله مصري قديم مرتبط بتماسيح النيل، ويمثّل صورياً إما في شكل التمساح أو في شكل إنسان برأس التمساح، وقد اعتبر إلها يحمي من الأخطار التي يمثلها النيل بفيضانه. (المترجمان)

ترتفع تلالٌ ضخمة من الرمال بالقرب من مدينة الفيوم، وربما تكون كنوز المعبد لا تزال مدفونة في أعماقها. وربما يأتي يومٌ يستطيع فيه علماء الآثار، أن ينقبوا عن الآثار بدقة وتأني تحت هذه الكُثبان الهائلة، ويكشفوا أسرارًا دفينة عن تلك الديانة الغريبة التي جعلت من التمساح الذي يبغضه جُل المصريين في سائر أنحاء البلاد إلهًا!

تحمسنا للتخييم في الصحراء هذه الليلة، فسلكنا طريقًا رتيبًا حتى وصلنا إلى "العدوة".[١]

كان "بان" يذهب ويجيء بجانب رأس الحصان، يترنّم بصوتٍ خافت ليُروّح عن نفسه ويُبهج الطريق، مردّدًا:

"يمشي الغزال الصغير خلف أمِّه في أمان،
بخطى ندية كقطرات الندى على الأغصان."

واصلنا المسير حتى بلغنا صحراء قاحلة، مترامية الأطراف، تكسوها رمال باهتة، وتتناثر فيها صخور سوداء كئيبة وموحشة، لا أثر فيها لنبضٍ أو حياة. أدركنا الليل حتى أن الشفق الأخير انطفأ من السماء، وخيَّمَ على

[١] قرية العدوة هي إحدى القرى التابعة لمركز الفيوم في محافظة الفيوم. (المترجمان)

المكان إحساسٌ رهيب بالوحشة تسلّلت في الأفق وعمت أرجاء المكان بأسره.

نصبنا خيامنا في هذا المكان الموحش، بعد تسع ساعاتٍ من السفر المتواصل.

استبدلنا ضجيج نباح الكلاب الذي كان يُزعجنا في القرى، بصوت الثعالب وهي تعوي في الصحراء، وصرخاتُ الضباع الحادّة في جوف الليل.

نصبنا حراسةً مزدوجةً حول المعسكر خوفًا من الذئاب التي كانت تختبئ في وادٍ قريب، تعوي وتنادي على بعضها البعض بأصوات مرتفعة وغريبة. أكثرها جرأة أو جوعًا يتسلّل حتى يدنو من خيامنا، فنلمح ظلالها القاتمة على صفحة السماء المرصّعة بالنجوم.

ورغم أن المشهد من حولنا بدا قاحلًا ومقفرًا، وخاليًا من مظاهر الحياة، إلا أنه مشهد للصحراء بكلّ ما فيها من سكونٍ ورحابة، وسحرٍ مكنونٍ يملأ القلب سكينة وهدوء. خلدنا إلى النوم ونحن قريري العيون، لأننا في الصحراء التي نُحب.

(١٤)
أولى الناشطات في حقوق المرأة

الأربعاء، ٨ مارس.

هَبّت الرياح أثناء الليل، وانشغل رعاة الجمال بتثبيت أعمدة الخيام ودق الأوتاد الخشبية، لكن خيمتين من خيامنا سقطتا. إحداهما هي خيمة الطهي وإعداد الطعام، والأخرى هي خيمة نوم لسوء الحظ. برزت منها إحدى الرؤوس بصعوبة طلبًا للنجدة. ما إن رُفعت الخيمة وأُزيل الحطام حتى نُقلت الضحية وهي لا تزال في سريرها، إلى خيمة الطعام، بينما بدأت جهود تجميع ما تناثر من ملابسها في أنحاء متفرقة من الصحراء، حيث بعثرتْها الرياح. لحسن الطالع، كانت معظم الأمتعة قد حُزمت استعدادًا للرحيل، إلا أن الأشياء المتبقية القابلة للكسر تحطمت تمامًا.

هذا الصباح الحافل كان يدخر لنا المزيد من الأحداث، فقد فزعنا لسماع دوّي إطلاق نار تبين أن مصدره خيمة المطبخ التي أُعيد نصبها

مؤخرًا استولى "طلبة الرهيب" على بندقية الحارس، وصوّبها نحو الطاهي النوبِيّ الضخم، وأطلق عليه النار وأخطأه بأقل من بضع بوصات! غضبنا غضبًا شديدًا واستدعينا "فضل الله" لنعاتبه على ترك بندقية محشوة في متناول اليد، وأخبرناه أنّه لا ينبغي السماح للأطفال باستخدام الأسلحة النارية. دافع عن نفسه قائلاً: لقد كنتُ أُعلّم الصبي الرماية، وقد تعلم إطلاق النار بالفعل! سررنا لاحقًا حين سمعنا صراخ "طلبة" بعد حديثنا مع والده.

غادرنا الصحراء في هذا اليوم، واجتزنا الأراضي المروية، وأخذنا نتفادى القنوات المائية التي تعترضنا عند كل منعطف. عاينا طائر الرفراف المخطط بالأسود والأبيض وهو يحوم فوق بركة صغيرة. ولمدة عدة دقائق راقبنا ذلك الكائن الجميل، الذي يظلّ مُعلّقًا في الهواء بلا حراك، ثم ينقضّ فجأة على فريسته في الماء بالأسفل.

بينما كنّا نسير على الضفاف الضيّقة للقناة، رأينا جمالًا تتقدّم نحونا، وهي تحمل على ظهورها أحمالاً ثقيلة بدا لنا من بعيد وكأن المرور من بينها مستحيل، لكن عندما اقتربت، تبيّن أنها موكب زفاف.

جلست العروس في هودج أسود يتمايل على ظهر أول جمل وهو مغلق تمامًا، ومزدان بأوراق نخلٍ شامخة منصوبة. لم نتمكن من رؤية الفتاة الصغيرة بالداخل، لكننا تخيّلناها وهي جالسة في بهاءٍ فريد، في سجنها العالي، تحلم – من يدري؟ – بأحلام تتأرجح بين الرجاء والخوف. أما الجمل التالي، فيحمل هودجًا مكشوفًا عليه ثلاث نساءٍ متربعات الأرجل، ينشدن أغاني العرس، بينما تردد العروس خلفهنّ. بدا المشهد مثيرًا وشجيًا في ذات الوقت.

أما الضيوف فقد تبعوا الجمال، فركب الكبار الحمير، بينما سار الباقون على الأقدام. ارتدت النساء أزياء الزفاف؛ وتحت السواد المنسدل، لاحت لنا ومضاتٌ من الملابس الحريرية ذات الألوان الزاهية، والحُلي الصارخةٍ ذات الطابع البدائيّ. لم يكن العريس معهم، بل كان في داره ينتظر عروسه.

يختلف مهر العروس بين الطبقات الفقيرة، فيتراوح عادةً بين خمسين ومئتين وخمسين دولارًا. وغالبًا ما يقع الاختيار على العروس من قِبل أمّ العريس أو أخته، إذ لا يُسمح له برؤيتها إلا بعد الاتفاق على كافة الترتيبات.

إذا تبادل الشاب والفتاة النظرات وشعر كل منهما بالارتياح والرضا، إذ لا يُسمح بأي حديث بينهما، يُمكن إتمام الزيجة. عندئذٍ يدفع الزوج نصف المهر لوالدي العروس وقت الخطبة، والنصف الآخر في اليوم التالي للزفاف. إذا لم يجد العريس في عروسه ما كانت تصوّره مخيلته، فإنه يعيدها إلى أهلها في اليوم التالي، ويخسر ما دفعه من مهر عند الخطبة. أما إذا رأت العروس أن عريسها ليس هو الأمير الساحر الذي حلمت به، فإنها ترجع إلى بيت أهلها، ويردّ والدها ما دفعه الزوج من مهر.

نصبنا خيمتنا لتناول الغداء تحت الظلّ الضئيل لبعض أشجار النخيل. وقبل أن نجلس لمحنا هيئة شيخٍ مهيبٍ يتقدّم نحونا بخطًى واثقة، فأسرع "فضل الله" للقائه. أدركنا من هيئته أنه رجل ذو شأن، فالعرب لديهم قدرة هائلة على التعبير، من خلال تصرفاتهم، عن مقدار الاحترام الذي يكنونه للآخرين. لقد كان هذا الرجل أغنى رجلاً في المنطقة، جاء ليُرحّب بنا في بُستان نخيله.

كان هناك جسرٌ ترابيّ مرتفع بالقرب منا، وهو أحد تلك الجسور التي تقطع البلاد طولًا وعرضًا.

استمتعنا بمشاهدة المارّة من الناس والدوابّ الذين ساروا أمامنا ذهابًا وإيابًا. إنّ هذه المشاهد الحيّة التي تعاينها على مرمى البصر تُعدّ من أبرز مفاتن مصر وسحرها الذي لا يُنسى.

ودّعنا الفيّوم بحزن شديد، تلك الأرض المفعمة بالبهجة، أرض الأزهار والثمار والحصاد الذهبي؛ وودّعنا "عبد الله"، خادم الباشوات الثلاثة.

عندما توغّلنا أكثر، أخذ المشهد يتبدّل شيئًا فشيئًا، فغدت الطبيعة رتيبة، بحرًا من الرمال وجبالًا صخرية مقفرة، تمتدّ بلا حدود، لا صوت فيها، ولا نبضُ حياة؛ لا نباتٌ يُرى، ولا حيوان. عند الظهيرة، حين تشتدّ وطأة الشمس على الرمال الملتهبة، ويكاد الهواء يغلي من شدة الحرّ، يلوح لنا السراب كأنّه ماءٌ رقراق، في مشهدٍ يتناقض بشدّة مع الصحراء الجافة القاحلة. كم من تائهٍ مسكين خُدعَ بهذه البحيرات الوهمية، التي سمّاها البدو بحقّ "بحر الشيطان".

لقد ورد ذكر هذا السراب في العهد القديم، على لسان النبي إشعياء (الإصحاح ٧): "ويصير السراب غديرًا حقيقيًا". ولا يزال العرب إلى اليوم يستخدمون كلمة "سراب" في وصفهم لهذه الخدعة البصرية.

واصلنا مسيرنا في الصحراء حتى بدى لنا من بين التلال مشهدًا خلابًا لهرم "ميدوم"، يلوح من بعيد متوهّجًا كأنه لؤلؤة ورديّة في حضن السماء الزرقاء الباهتة.

لاح لنا النيل في الأفق مرة أخرى. تمتد الصحراء العربيّة، خلف الهرم، في الضفّة المقابلة من النهر، وتتخللها أخاديد غريبة متوسطة الاتساع ويغلب عليها طابع من الرتابة، ولونها بُنّي داكن يشبه لون الشوكولاتة.

على مسافة بعيدة في الصحراء تبعد مسيرة أيام عديدة في قلب الصحراء وغموضها، تقع المحاجر والمناجم التي أصبحت مهجورة الآن، بعدما كانت تُدرّ على مصر ثروات طائلة في الماضي، فعبر أجيال متعاقبة، أُكره العبيد وأسرى الحروب على الكدّ المتواصل، تحت السياط، دون هوادة أو شفقة، لا يُراعى فيهم شيخٌ ولا امرأةٌ ولا مريض، حتى يكون الموت خلاصهم الوحيد.

وما زالت آثار المعسكرات القديمة باقية هناك؛ وفي بعض المواقع، بدت المناجم والمحاجر وكأنها قد هُجرت في عجالة، كأنما استُدعِيَ أصحابها فجأة. رأينا كتلاً كثيرة متناثرة حول محاجر الرخام، بعضها ما

زال خامًا، والبعض الآخر منحوت جزئيًا. بعض هذه الكتل مرقمة، وبعضها نُقشت عليه أسماء بعض القياصرة الراحلين، كأنها كانت معدّة لهم. ومن بين تلك الكتل، وجدنا واحدة على هيئة تاج معماري، كُتب عليها: 'مِلك للقيصر "نيرفا تراجان".[١]

على مسافة أبعد من ذلك، في منطقة "سواكن"، تقع "بونت"[٢] الشهيرة، التي اعتقد المصريون القدماء أنها مهد سلالتهم، والمأوى الأول للآلهة، وخلفها يقع "عالم الموتى أو أرض الظلال" الغامضة التي يمكن للأحياء التواصل مع أرواح الموتى فيها، ثم خلف تلك الأرض يقع مقرّ الآلهة. لقد كانت "بونت" أرضًا أسطورية تذخر بالكنوز، تُرسل إليها البعثات من حين لآخر بحثًا عن الأقزام لتسلية الملوك وكسر رتابة أيامهم، وعن المرّ والبخور لإرضاء الآلهة، فضلًا عن الذهب والأبنوس والجلود والعبيد وغير ذلك من النعم والترف.

---

[١] الإمبراطور تراجان أو ترايان وهو ماركوس أليبيوس نيرفا ترينوس أغسطس، ثاني الأباطرة الأنطونيين الرومان، والامبراطور الروماني الثالث عشر، وبلغ بالإمبراطورية الرومانية أوج اتساعها. (المترجمان)

[٢] البنط أو بونت: هي منطقة في شرق أفريقيا معروفة لدى قدماء المصريين. كانت وجهة العديد من البعثات المصرية المجهزة لجلب خشب الأبنوس والبخور إلى مصر، طلاء العين السوداء، العاج، القرود المروضة، الذهب، العبيد وجلود الحيوانات الغريبة. (المترجمان)

ولعلّ أشهر تلك البعثات كانت في عهد الملكة الشهيرة "حتشبسوت"، أول امرأة متقدّمة عرفها التاريخ، وأولى الرائدات التي تولت عرش مصر —في سابقة لم يعهدها الزمان —قبل نحو أربعة آلاف وخمسمئة عام. ويُقال إنها عدّلت قوانين البلاد وأعرافها لتلائم سلطان امرأةٍ تجلس على العرش.

إن أول ما وجّهت الملكة اهتمامها إليه، هو بناءُ معبد للإله آمون، لتخليد ذكراها، وليكون مرقدًا لها. قيل لنا إن الإله أمرها قائلًا: (اكتشفوا طرق الوصول إلى "بونت"، فإني أرغب أن تُشيّدوا لي مكانًا مقدسًا مثل "بونت"، وتغرسوا أشجار أرض الآلهة بجوار معبدي، في حديقتي).

فانطلقت البعثة الاستكشافية، ثم دُوّنت وقائعها لاحقًا على جدران المعبد في نقوشٍ مصوّرة، لا تزال باقية إلى يومنا هذا. أبحرت السفن ثم بلغَت وجهتها، وهناك حُمّلت بـ"كل الأخشاب العطرة النفيسة من أرض الآلهة، وأكوامٍ من البخور، والراتنج،[١] وأشجار المرّ الغضة، والأبنوس

[١] الراتنج هو إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، ولا سيما الأشجار الصنوبرية. وهو أحد مكونات الحليب النباتي. التي تكون قيمتها كبيرة في السوق لمكوناتها الكيميائية واستخداماتها، مثل الورنيش والصمغ، وبوصفها مصدرًا هامًا للمواد الخام وللتركيب العضوي، والبخور والعطور. (المترجمان)

والعاج الخالص، وأحجار الزمرد الثمينة من "إمّو"، وخشب القرفة، والبخور، وكحل العيون، وقِردة الرباح الأفريقية، والكلاب، وجلود فهود الجنوب، والحيوانات التي تعيش في تلك البلاد وصغارها. لم يُهدَ مثل هذا لأحد من الملوك الذين جاؤوا منذ فجر التاريخ.

وعندما عادت البعثة إلى "طيبة" ناجحة مظفّرة، شُيّدت ثلاثُ مصاطب عظيمة على الضفة الغربية من النيل، يحيط بها حدائق من أشجار المرّ، وتزينها أروقة ذات أعمدة رشيقة، تؤدي إلى ساحة مرتفعة وفيها نُحت قدس الأقداس، من معبد "الدير البحري" المنقوش والمزخرف، في حضن الجبل الذي ينتصب فوقها كالحصن الشامخ. ولمّا اكتمل البناء، قالت الملكة بفخر: "لقد أنشأت له مكانًا مقدسًا يُشبه "بونت" في حديقته، كما أمرني. إنه رحيب للغاية ليتجول فيه كما يحلو له."

ظل الشعب المصري مشغولًا في خدمة الملكة، يشيد لها المعابد والآثار، ويرفع المسلات (التي كانت تتطلب تسعمئة وستين رجلًا لتسيير السفن التي تحمل اثنتين منها). لم تكتفِ بأن تحافظ على مكانتها كملكة على عرش مصر، لكنها أبقت زوجها وأخيها غير الشقيق، تحتمس الثالث، خاضعًا لسلطانها—وهو أعظم وأنجح محاربي الفراعنة، الذي

توسع بالإمبراطورية المصرية إلى أقصى حدودها. ولمدة خمس عشرة سنة، ظل ينتظر على أحر من الجمر أن توافيها المنية، ليبدأ حملاته على سوريا.

ولا عجب، بعد كل تلك السنين التي أمضتها "حتشبسوت" تبني المعابد وتنصب المسلات تخليدًا لذكراها، أن يثور حنقه بعد وفاتها، ويُقدم على محو أسمائها الملكية[١] (الخراطيش)، وملامح وجهها، وصورتها من على كل الآثار التي أقامتها لتخليد ذكراها. لكنّه لم يفلح في محوها تمامًا، فقد تمتعت، بلا ريب، بسحر فريد في شخصيتها، مما جعلها تظل حاضرة في الأذهان عبر العصور وحتى يومنا هذا.

لقد انقضى عهد الإله "آمون"، وغاب "تحتمس الفاتح" عن الساحة، ورحلت الملكة العظيمة، لكن روحها ما تزال حاضرة في هذا المعبد، الذي لا مثيل له في مصر كلها؛ إذ تنبعث من أركانه رقّة آسرة، وسحر عميق، ونغمة شخصية دافئة، يشعر بها كل من يتأمّل الدير البحري، بما فيه من مصاطب فسيحة وأعمدة أنيقة؛ يسطع لونها باللون

[١] في الكتابة الهيروغليفية المصرية، الخرطوش هو شكل بيضاوي مع خط في أحد طرفيه مماس للبيضاوي، مما يشير إلى أن النص المرفق هو اسم ملكي. (المترجمان)

الأبيض الناصع في الصباح، ويغدو ذهبيًّا تحت شمس الظهيرة الحارقة، بينما يتلون بلون الورد عند الغروب، حيث يحتضنه ذراع من الجروف البرتقالية في طيبة.

بالقرب من معسكرنا، بدا لون رمل الصحراء رماديًا إذا أمسكه المرء بيده وتأمله عن قرب؛ ولكن تحت ضوء الشمس الجنوبية المتحوِّل، لم يكفّ اللون عن التغيّر كالحرباء. شاهدنا أمامنا مساحات شاسعة من الرمل لونها بنيّ مائل إلى الحمرة، ترتجف عليها الحرارة كأنها ماء؛ وأحيانًا يمتدّ أمام الناظر دربٌ من الذهب يمتد إلى تلٍّ أزرق عميق يلوح في الأفق وكأنه سحر؛ ثم ما يلبث أن يتغير إلى اللون البني، ثم إلى الأسود، ثم إلى لون الأوبال المتلألئ كلما طال التأمل فيه. ولمسافة أميالٍ كثيرة، تَنتصِبُ منحنيات الرمل الطويلة على جانبي الطريق، وتنساب بخطوطٍ بالغة الرقة والجمال.

كلما اتجه المرء جنوبًا ازدادت الألوان شدّة وتألقًا. ترى منحدرات شاهقة تنتصب على ارتفاع عظيم، تشعّ جوانبها العمودية بكل درجات الأصفر والأحمر: من أصفر النرجس الباهت، إلى لون الزعفران، ثم ورديّ الأصداف البحرية، واللون الخزفيّ (التيراكوتا)، وصولًا إلى الأحمر القاني. إنه مشهد متّقد بالألوان والحياة.

يشعر المرء هنا وكأنّه أمام قوّة جَبّارة، تمحو كلّ وهنٍ من الوجود. لا أثر هنا للحزن الذي يخيّم على المناطق الشمالية، حيث تبدو الأشجار والشجيرات نفسها وكأنها تتلوّى من عذابٍ طويلٍ مرير، من أثر صراع الطبيعة المضني للتكيّف مع بيئةٍ لا تألفها. أما هنا، فما لم يكن نابضًا بالحياة، فهو ميّت — ميّتٌ بانتظار أن يُبعث من جديد في صورة أخرى.

عند مواصلة السير إلى الجنوب، وسط رمال السودان الذهبية الضاربة إلى الصفرة، يظهر الطابع الأشد حضورًا في إفريقيا: إفريقيا المجهولة الغامضة، المتلألئة المتوهّجة، الممتدّة إلى أراضٍ لا تعرف إلا العطش الأبدي. إنها إفريقيا البرية، المتوحّشة، المفترسة، المتمرّدة بطبيعتها، التي تُرضي فينا شيئًا عميقًا وأصيلاً من تكويننا الفطري: نداء الغابة، ذلك النداء الذي يمكن تتبّعه إلى أسلافنا الأوائل، الذين ما تزال غرائزهم البسيطة تمثّل الأساس في طبيعتنا الإنسانية. إن إحساسنا أننا عرفنا كل هذا من قبل، شعور حيّ نابض لا بد أن تكون له صلة ما بماضينا، أو بماضي جنسنا البشري.

يمتد القمحُ على ضفتي النيل، ويتدلى نحو مياهه، كما تلقي أشجار النخيل ظلال جذوعها الحمراء النحيلة على الأرض التي لفحتها الشمس في الهواء الساكن، وتصب الشمس أشعتها من السماء الزرقاء العميقة

على الكثبان الرملية المتوهّجة التي تربض في ترقّب هادئ وكأنها تنتظر لحظة درامية وشيكة.

يصاحب مجرى النيل، وهو يشق طريقه بين رمال النوبة المتلألئة وحقول مصر الخصبة، صوت صرير الشادوف الرتيب الذي تُرفع به المياه في موسم انخفاض منسوب مياه النيل، بدِلاءٍ معلّقة على عصيٍّ طويلة، لتروي الأرض العطشى. وإلى جانب ذلك الصوت الخافت، يُسمَع غناء الرجال شبه العراة، يرددون أنشودة رتيبة، بينما تنهمر المياه على جلودهم البرونزية اللامعة، وهم يأرجحون دلاء الماء فوق رؤوسهم.

ينحنون بإيقاعٍ منتظم، ثم يندفع الدلو فجأة في قفزةٍ نابضة ككائنٍ حيّ أُطلق سراحه. يالا رشاقة هذه الأجسام المرنة، عريضة الأكتاف، التي تنهض وتنحني في حركةٍ منتظمة لأداء عملها!

رؤوسهم الصغيرة وملامحهم النبيلة، وعيونهم الكبيرة ذات الجفون الثقيلة، تُشبه وجه "سيتي الأول"، ذلك الوجه المنحوت على جدران معبده البديع في "أبيدوس"، الذي يُعدّ من أدقّ وأجمل نماذج الجمال في مصر كلها. لقد أبدع الفنان في نحته أيّما إبداع، حتى قيل إن الملك أمر بقتله حتى لا يستفيد غيره من موهبته. لكن جماله ظلّ حيًّا، خالدًا في

سلالته. يتغيّر الشكل تدريجيًا في جنوب أسوان، حيث يصبح لون البشرة أدكن، ويغدو الجسد أقل نحافة، والملامح أقل دقة؛ إلى أن يظهر في النهاية ذوو البشرة الداكنة.

خيمنا على بُعد أميال قليلة من هرم "ميدوم"، ذلك الأثر البعيد العهد، الأقدم من أهرامات الجيزة، الذي بناه الملك "سنفرو" نحو عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد.

(١٥)
حياتُنا في المُخيم

الخميس، ٩ مارس

الجمعة، ١٠ مارس

نُصبت الخيام في موقع مكشوف على أرضٍ حجرية لم تُثبّت الأوتاد فيها بإحكام، وعصفت الرياح بشدة، وأخذت الخيام تطير وترفرف وكأنها أشرعة سفينة في عرض البحر، وبدت وكأنها حمايةٌ واهنة أمام غضب الطبيعة. قضى الرجال ليلتهم يتنقلون من خيمة إلى أخرى، يدقّون الأوتاد بمطارقهم. أما الحيوانات فقد كانت في حالةٍ من الاضطراب والقلق، وظلّت الحمير تنهق نهيقًا مستمرًا.

استيقظنا في صباح اليوم التالي لنجد كل شيء رمادي، فقد تغلغل الغبار إلى داخل خيامنا، وغطى الكتابات المقدّسة والنقوش البدائية ذات الألوان المتداخلة، وأضفى جوًّا غريبًا على المكان؛ إذ إنّ الضباب المتكوّن من ذرّات الرمل بعث في النفس شعورًا بالعزلة الغريبة، وكأنّنا

مُقيَّدون بأيدٍ خفيّة في قلب صحراءٍ لا تُرى، أسرى خلف جدرانٍ خفية من الغبار الناعم الكثيف.

هدأت الرياح وانقضت رياح الخماسين، إلا أن الجو ظل مثقلاً بالرمال، كما ظلت الشمس متوارية خلف الغيوم. بدت الصحراء أشبه بشيء ميّت—موحشة، وكئيبة، وخانقة. بدا الهواء البارد الرطب، مع الضباب الرملي، أشبه بضباب البحر، لكنه أكثر كآبة من البحر بما فيه من حركةٍ مستمرة. خيمت على الأجواء في هذه الفيافي المترامية كآبةٌ خانقة رهيبة تسحق الروح في صمتٍ مطبق. تذكرنا بآمال ضائعة، وأحباب غابوا، وأرواح وُوريت التراب -قضوا نحبهم وغاب ذكرهم ولم يحظوا بالذكرى التي تهب الإنسان حياة بعد موته. تحدثك الصحراء عن الماضي الذي دُفن تحت رمالها، تُوحِي بأنّ ما مضى من أشياء، وما انقضى من حضارات، لن يكون استثناءً لما هو آتٍ- فكما مضت تلك الحياة، سيمضي كلّ شيء، بل سيمضي العالم نفسه، ويُصبح في عداد الكواكب المحترقة التي اندثرت منذ أزمانٍ سحيقة.

لم تكن الخيام ثابتة فاقترح "فضل الله" أن ننقلها إلى أرضٍ أكثر ثباتًا، وموقعٍ أكثر حمايَة من الرياح. وقع الاختيار على بقعة من الأرض على بُعد ميل تقريبًا. تقدّمنا نحوه بعربة الرمل، ثم بدأت عملية النقل: فُكّت الخيام، وحُمّلت الأمتعة على ظهور الجمال، ووضعت حمولة كلّ جملٍ

عليه ورُصت بنفس الترتيب المعتاد، وفي زمنٍ أقصر مما توقّعنا، رأيناهم يتقدّمون نحونا بأحمالهم المتأرجحة.

وقفنا نراقب الخيام وهي تُنصب من جديد. دائمًا ما يُشرف "رشيد" على هذه العملية، بل ويشارك فيها بنشاط يفوق الجميع، على الرغم من أنه المسؤول عن القافلة طَوال الرحلة، وأنه قطع هذا الطريق كله سيرًا على الأقدام.

إنّ جِدَّ رجالنا ودماثة خلقهم أمر يفوق الوصف والثناء.

تبدأ عملية نصب الخيام بغرس الجزء السفلي من العمود بإحكام في الأرض، ثم يُركّب فيه الجزء العلوي الذي تُثبّت عليه السقيفة. تُفكّ الحبال المثبتة بأركان الخيمة، بينما يمسك أحد الرجال بالعمود من المنتصف. سرعان ما تُغمره طيّات القماش، لكن لا يلبث أن يختفي إلا لحظة، إذ يسارع أحد الرجال بشدّ كل حبل بإحكام. تُدقّ الأوتاد الخشبية في الأرض بمطرقة كبيرة من الخشب، كما تُشدّ جوانب الخيمة حول السقف الدائري وتُربط بشرائط وأربطة من القماش. وتُلقى ستارةُ المدخل -التي تُشكّل باب الخيمة- على السقف المائل أو تُسدل فوق أحد حبال الخيمة.

تُفرش السجاجيد لتغطّي أرضية الخيمة بالكامل، وتُفكّ الأسرة، التي تكون مغلّفة في أغطية مقاومة للماء، وكلّ منها يحتوي على مرتبته وفرشه وغطائه، تُركّب وتُهيّأ في الخارج قبل أن تُنقل إلى الداخل.

تُفرد طاولات الزينة والكراسي القابلة للطي، وتُنقل إلى أماكنها المخصصة. تُخرج الأواني الخزفية والزجاجية والمعدنية من الصناديق الخشبية الضخمة، ويُرتَّب كلُّ شيء في نظام دقيق. وفي هذه الأثناء، تكون خيمة المطبخ قد نُصبت، وتُخرج منها أدوات الطهي المحفوظة في صندوق خاص بها. دائمًا ما يوضع موقد الطباخ على الأرض فور الوصول، حتى تجهز الخيمة. وهو على هيئة حوض صغير يبلغ طوله نحو ثلاثة أقدام، وارتفاعه قدمًا، يرتكز على أربعة قوائم. يُشعل الفحم فيه عادة بسكب قليل من الكحول الميثيلي عليه لتسريع الاشتعال. يجلس الطاهي العجوز القرفصاء إلى جواره، يُهوي بيده بقوة لإذكاء اللهب، بينما يُوضع الإبريق فوق الجمر. وما إن تنتهي الترتيبات، حتى يتفرغ رجال القافلة، الذين كانوا يُساعدون في نصب المعسكر، للعناية بدوابهم، فينزعون السروج واللُّجم عن الحمير المقيَّدة. أما الإبل فتُجبر فور وصولها على الجثو حتى تُفرغ حُمولتها، فلا تتحرك بعد ذلك، بل تستكين هادئة إلى أن يُقدَّم لها طعامها، فتبدأ بمضغه بصوتٍ عالٍ طوال

الليل. ونادرًا ما تُنزع سروجها الخشبية، لكن إن حدث ذلك، تسارع إلى التقلّب على الأرض لتُخفّف وطأة التعب عن ظهورها المُنهكة.

يُسرع الخدَم إلى معونة الطهاة، فيُقشّرون الخضراوات، ويذبحون الدجاج والحمام وينتفون ريشها، ويفتحون علب الطعام وجرار المعلّبات.

من الطبيعي، بعد مسيرة طويلة، أن يكون أوّل ما يتوق إليه المرء – بعد مأوى يركن إليه – هو الطعام. تتألف وجباتنا بشكلٍ أساسي من البيض بأنواعه المتعددة، ولحم الضأن أو الجدي، أو الدجاج الهزيل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع أو الحمام الذي يُعدّ لذيذًا للغاية. نأكل كذلك الأرز المطهو بطرائق شتّى، والمعكرونة، والبطاطس، والخضر والفواكه المعلّبة.

بعد العشاء، خرجنا نتجول في قريتنا الصغيرة، نُشاهد الدواب وهي تلتهم علفها، وسائسوها وقد تجمعوا حول النار وهم يحتسون القهوة.

رأينا "طُلبة" يلهو بعصًا وخيط، يدندن لنفسه بأنغام هادئة. لقد كان فتى وديعًا وهادئًا، لا يتذمّر أبدًا، وتبدو عليه السعادة.

أما في خيمة المطبخ، فقد اجتمع بعض الرجال يتجاذبون أطراف الحديث ويسردون القصص. جلس "رشيد" و"بان" القرفصاء على

الأرض قرب خيمة الطعام. أخذ "بان" يعزف على نايه القصبي، بينما عزف معه رشيد على المزمار. جلسنا بالقرب منهما نستمع إلى الألحان الهائمة، التي تتهادى في الفضاء تحت نجوم الليل المتلألئة. كانت أنغام الموسيقى تتردّد في الأرجاء بنبضٍ موزون، تعلو حينًا وتنخفض حينًا، يهيمن عليها الحنين، ويشحذها الأنين. إن التنافرات الغريبة، وأنصاف النغمات، والإيقاع المزدوج الذي يميز الموسيقى الإفريقية — مما قد تعجز الآذان التي لم تعتد عليه عن التقاطه في الوهلة الأولى — لا يبدو ذا معنى في بادئ الأمر؛ إلا أنه يأسر النفس بطريقة لا توصف، إذا ما ألفته واعتادت عليه، ويصبح قوةً خفيّة تُحرّك الوجدان، وتُسحر الأرواح بلا استئذان. ثمّة شبهٌ كبير بين هذه الموسيقى وموسيقى القوزاق،[١] والموسيقى الشعبية لدى الإغريق، وموسيقى أهل المرتفعات في إسكتلندا، وموسيقى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

جلسنا وسط عالمنا الصغير، ذلك الذي كنّا نتشارك فيه مع من حولنا اهتماماتٍ شتّى، وآمال ومخاوف، نشأت من الأحداث التي نواجهها في حياتنا اليومية. أدركنا آنذاك أننا لم نعرف بعضنا بعضًا بشكل جيد لأننا لم نتوغل إلى أعماق النفس البشرية، بل وقفنا عند السطح ولم

[١] القوزاق هم مجموعة إثنية أرثوذكسية شرقية للسلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم السهوب الجنوبية في شرق أوروبا، وروسيا، وكازاخستان، وسيبيريا. (المترجمان)

نتجاوزه. فخلف كلّ وجه باسم، تكمن نفسٌ شرقيّةٌ وعقلٌ غامض، لا سبيل لنا، نحن أبناء الغرب، إلى سبر غورهما. كنا نعلم أن تلك الابتسامة الوادعة ربما تنقلب، إذا ما سنحت الفرصة وتهيّأت الظروف، إلى خنجرٍ مسلول.

رفعنا أبصارنا إلى السماء، نتأمّل النجوم المتلألئة فوق رؤوسنا، فإذا بها ليست كالتي عهدناها في بلادنا. لقد فاق جمالها المتّقد بهاء نجوم الشمال، غير أنها بدت، في أعيننا، وكأنها لا تنتمي إلى نظامنا النجمي الذي نألفه. ومع تغيّر خطوط العرض، تتغيّر مواضع النجوم، لذا لم تبد مألوفة كما كانت. حتى "كوكبة الدب الأكبر"،[1] تلك الكوكبة التي تتخذ شكل ملعقة واعتدنا رؤيتها في الشمال وكأنها ممتلئة بالماء، لم تبد بنفس الشكل هنا. أمّا "الصليب الجنوبي" الذي يتلألأ في صفحة السماء أقصى الجنوب، فقد بدا هنا وكأنّه انقلب رأسًا على عقب.

أفزعنا في جوف الليل وقع هطول المطر الغزير على خيامنا. هطل مطرٌ يحمل في طياته قوّة هذا الشرق العاتية التي لا تلين، وكاد أن ينفذ

[1] كوكبة نجمية بارزة في السماء الشمالية، تتخذ شكل "مِغرفة" أو "ملعقة" كبيرة، لذا تُسمّى في الإنجليزية بالمغرفة الكبرى. (المترجمان)

إلى مأوانا الهشّ ويغمرنا بالمياه، لكننا تعلمنا من الشرق الرضا بالقسمة والنصيب فاستسلمنا لـ"القَدَر"، وعدنا إلى النوم في طمأنينة.

في الصباح التالي، بدا كلّ شيء مفعمًا بالحياة، فالصحراء، التي لم نرَ منها بالأمس سوى الأخطار الكامنة، أشرقت اليوم وبدت وديعة وتفيض دفئًا ونورًا. سكنت الرياح، وخفّ صريرها، وتبدل هذا كله بسكينة دافئة عمّت الأرجاء. في يوم كهذا، أدركنا حقيقة القول المأثور: "من شرب من ماء النيل، فلا بد أن يعود إليه". هنا، يشعر المرء بتناغم وانسجام مع البيئة المحيطة، ويندمج معها اندماجًا يُشبه اندماج الكفّ في القفّاز. لن يطيب للمرء مقامٌ بعد اليوم في حشود الحياة المزدحمة. سنتعجب عندما نرى الآخرين يحيون في بيئتهم الطبيعية. ستبدو لنا حركتهم الدؤوبة وكأنها حلمٌ عابر، فيما تغدو الحقيقة هي هذا الضوء الذهبي، وسَعَف النخيل المترنّح، ورائحة التربة — تلك الرائحة النفّاذة الحلوة — التي لا تمحى من الذاكرة.

في بعض مسيراتنا الطويلة، كنا نسير تحت لهيب الشمس الحارقة فوق رؤوسنا، فيما كانت الرمال تحت أقدامنا تلتهب حتى تكاد تُذيّب الأرواح في الأجساد. اعتصر الظمأ حناجرنا، فغدت وكأنها طينٌ متشقّق في قيظ الظهيرة، وأصابنا الإعياء وأخذ ينهش أوصالنا فلم يتبقَ فيها عصبٌ لا يشكو أو مفصلٌ لا يئن. في تلك اللحظات، كرهنا أفريقيا كرهًا

شديدًا، كأنها عدوّ لا يُقهر، بل يسعى لاجتياح الروح، لا الجسد فحسب. ثم لا تلبث أن تهب نسمةً رقيقة، أو يمرّ غيمٌ خفيف يلقي بظله الأرجواني على الطريق، أو تنكشف من فوق أحد التلال الرملية مساحةٌ ذهبية رحيبة، تمتد حتى تلامس زرقة الأفق البعيد، فيأسرنا حُبنا لها، وندرك أن القوة التي تسببت في الكراهية إنما هي جزء من سحرٍ لا سبيل إلى الفكاك منه.

عندما نتجه إلى أقصى الشمال، حيث التلال الصغيرة التي تبث الطمأنينة، سنظلّ نشتاق إلى السيف، والعنفوان، والمرتفعات، والمنخفضات، والسكون، والرحابة، والطبيعة القاسية، فالصحراء لا تجلب الطمأنينة، بل تبعث الحياة.

"من ذاق نداء الشرق، فلن يصغي لنداءٍ سواه."

جلسنا أمام خيامنا، نتظاهر بالقراءة، لكننا في الواقع لم نستطع أن نحول أعيننا من النظر إلى التغييرات المتواصلة لهرم الجيزة العظيم. لقد بدا وكأنّه ينهض من بين الرمال الذهبية، بلونها الأصفر؛ وبين الفينة والأخرى، تغيّرت هيئته، وتبدّل مظهره وكأنّه صار شيئًا آخر تمامًا. أحيانًا بدا بلونٍ بنيّ قاتم، وشكل مفلطح، ولم يبدُ منظره جذابًا، كأنّه بُني من الحجر الرملي. وفي أحيان أخرى تسلّلت إليه لمسة بنفسجية ببطء،

وتحوّل إلى طيفٍ من البنفسجيّ والورديّ، كأنّه يبشر بقدوم الربيع. فجأة غدا جانب منه أسود قاتمًا، بينما توهّجت أطياف البنفسج لتصير أرجوانية ناصعة ثم اختفت، لتُطلّ لنا من بعيد قُبّةٌ من العاج، كأنّها طيفٌ معلّق في الفضاء، مشعّةٌ بجمالٍ أثيريّ ونقاءٍ سماويّ. لِمَ نرحل؟ ولمَ نمض إلى أيّ مكان؟ بحسب المرء أن يجلس في سكون، ليعاين مشهدًا لا يكفّ عن التغيّر، في سحره وروعته. تُرى، هل لبث "سنفرو" في سالف الدهر كما لبثنا نحن، يتأمّل من هذا السهل هذه التحوّلات العجيبة؟ لقد كان الهرم – كما هو اليوم – ومنذ آلاف السنين، يقدّم هذا العرض الأبديّ من الجلال والجمال. مع مرور الوقت بدا وكأن بيننا وبين الهرم بحيرةً عظيمة لاحت فجأة في الأفق، تنعكس على صفحتها تارةً صخورٌ قاتمة مدببة، وتارةً قلاعٌ بارزة ذات أسوارٍ ومنازل حصينة، ثم تتبدّى فيها – في هدوء وسحر – أشجار النخيل الباسقة. انعكست ظلال الجُزر، بما اكتنفته من غاباتٍ كثيفة، على صفحة الماء، وظلت هيئاتها تتبدّل على الدوام؛ والقصور ترفع أبراجها البيضاء في وجه الشمس المتّقدة، حتى إننا رأينا تموّجات الماء على سطح هذه البحيرة السرابية.

بعد الغداء، عدنا تارة أخرى إلى تظاهرنا بالقراءة، بينما ظلت قلوبنا معلّقة بالمشهد الأخّاذ الممتدّ أمامنا. وفي ساعات العصر المتأخّرة، تراءت لنا في الأفق نقاط متحرّكة، أخذت تكبر شيئًا فشيئًا، حتى تبيّنّا أنها

فرقة الإمداد التي أُرسلت في وقت مبكر من النهار لجلب المؤن. كانت الجِمال مثقلة بالأحمال، ولكن ليس إلى حدّ يمنع سائسيها من الركوب، إذ رأيناهم يعتلون ظهورها جميعًا، عدا اثنين: "حسن" الصغير، الذي يعرج، و"جمعة"، سائس الجمال الأسود. كان عبدًا من قبائل البربر، وأكثر سائسي الجمال أمانة وتحملاً للمسؤولية. لا ينام في وقت حراسته، ولا يتسبّب في المتاعب. عندما رأيناه للمرة الأولى ظننا أنه يرتدي قفّازين رماديين، لأن لون يديه بدا غريبًا. وجهه هادئ وحزين، لذا تمنينا أن نتحدث معه لنعرف قصته.

تضاءلت تجارة العبيد كثيرًا، لكنها لم تنتهِ تمامًا بعد. يعامل العبيد معاملة طيبة في مصر؛ وذلك لأسبابٍ عدّة؛ منها أنهم يُعدّون أناسًا ذوي قيمة، ومنها ما جبل عليه المصريون — وأعني أولئك المصريين الأصليين الذين لم تُبدّلهم الأيام — من طيبة الطبع ورقّة المعشر. أما العرب، فيرى كثيرون أنهم ورثوا عن جدّهم إسماعيل صفته المأثورة: "وكانت يده على كلّ إنسان."[1]

[1] العبارة مقتبسة من سفر التكوين (١٦:١٢)، وغالبًا ما تُستدعى في الأدبيات الاستشراقية لتوصيف العرب بأنهم شعب صعب المراس. وهي صورة نمطية تُجافي الإنصاف، تختزل الشخصية العربية في طابع عدواني، وتغفل عمقها الإنساني والثقافي المتنوّع. (المترجمان)

اشتهرت الطبقات الحاكمة في عهد حكم الأتراك بالقسوة، لكن في السنوات الأخيرة، حين يُهدَّد أحد الفلّاحين بالجلد إن لم يخضع لمطلب جائر، كان يردّ بثقة: "الإنجليز هنا، ولن تستطيع ضربي."

اعترضنا بشأن الصغير "حسن"، وإن كنّا ندرك أنّ اعتراضنا دون جدوى.

تراءت لنا الواحة الخضراء من بعيد، وتلألأ النيل عند حافتها، ومن خلفهما انتصب جبل المقطم كأنّه مدرّجٌ عظيم، تتخلّل صخوره المسنّنة خلفية من سماء زمرديّة زرقاء. وتمتدّ على الأفق قمم بنفسجية، وردية، وصفراء، في تتابعٍ أخاذ، تفصل بينها أودية يكتنفها الغموض، يغمرها ظلّ أزرق داكن يتبدّل لونه بين الفينة والأخرى، حتى ليُخيَّل للناظر أنّ جبالًا ووديانًا جديدة قد لاحت في الأفق، وأخرى قد اندثرت.

ساد سكونٌ مفاجئ، وصمتٌ مهيب، كأنّ الأرض حبست أنفاسها وفجأة انبثق في الأفق "ضياءٌ لم تشهده بحارٌ ولا براري" معجزة تتجدّد كلّ يومٍ في أرض العجائب هذه مع غروب الشمس. يرفرف الهواء الشفّاف كأنّه صفحة ماء، ويزداد توهّجًا لحظةً بعد لحظة، حتى توشك الأشياء أن تشعّ من داخلها نورًا خالصًا. ليس هذا العالم هو عالم الأمور المألوفة، فلا ريب أن أميراتٍ فاتناتٍ يسكنّ تلك التلال الساحرة، التي

تلهو وتمرحُ بها الآلهة وتتلصّص عليهم الجنيّات من خلف كلّ ركنٍ خفيّ! بالتدريج يتبدد البهاء، وتزحف الظلال الرمادية كمدٍّ بحريٍّ فوق التلال البعيدة وعبر الوادي الفسيح. ولا يبقى سوى هرم "ميدوم" العظيم، شامخًا بلونه الذهبي القاتم، يصارع الزحف الداكن، يتوهّج ويلمع كأنّ في جوفه نارًا خفيّة، تلتهم ذاتها في طقس عبادةٍ لآلهةٍ بائدة.

(١٦)

الغذاء الضائع

السبت، ١١ مارس

اعتصرنا الحنين عندما أدركنا أنّ رحلتنا أوشكت على الانتهاء، وأنّ علينا أن نولّي وجوهنا شطر العودة.

لذا فلأوّل مرة في رحلتنا، عقدنا العزم على أن نقصد مكانًا بعينه، ونصل إليه في وقتٍ محدد. شعرنا وكأنّنا قد قُيّدنا بأصفاد من حديد، وكأنّ بهجة الحياة وتنوّعها قد تلاشت مع زوال عنصر المفاجأة. فلم يعد الأمر كما كنا نردّد دائمًا "معلش"، بل أصبح "علينا أن نتحرك على الفور."

بينما كانت قافلتنا تتّجه شمالًا في خطٍ مستقيم، حِدنا عن الطريق قليلًا لزيارة هرم "ميدوم".

لا يزال السراب، ذاك البحر الخيالي، ممتدًا أمامنا. وكلّما تقدّمنا شعرنا وكأنّنا على وشك الخوض في مياهه، لكنها ما تلبث أن تتراجع خطوة

أمامنا. أمّا "طُلبة"، فقد فرّ هاربًا! لقد حقّق أحد أحلام طفولته: فامتطى أفضل حمير القافلة، المزوّد بسرج جانبي، وانطلق به بعيدًا، تضرب ساقاه الصغيرتان جنبي الحمار كالمِدرَس، وفي يده سوطٌ يلوّح به في الهواء، بينما رفرفت عباءته السوداء خلفه في النسيم، ولم تُصغِ أذناه إلى الصيحات الآمرة بالتوقّف. غير أنّ هذه النشوة العابرة بالحرية لم تدم طويلًا؛ فما إن لحق به أحد الرجال، حتى رأيناه بعد قليل يركب – عقابًا له – أسوأ حمار في القافلة، بوجهٍ عابس وملامح متجهّمة.

كلّما اقتربنا من الهرم، كلما ازداد وقعه في النفس، وشعرنا أننا نسير في أرض لم تطأها الأقدام منذ قرون، وأن شبح الماضي الغابر يُمسك بنا ولا يدعنا نُفلت من سطوته. أين ذهب الآلاف ممّن عاشوا هنا، فرحوا وحزنوا في تلك العصور الغابرة؟ أين العقول العظيمة التي خطّطت وشيدت هذه المعابد؟ أين تلك الحضارة التي جعلت الصحراء القاحلة تزهر وتنبت؟ لقد غدت الآن قاحلة وموحشة وساكنة.

لقد سكنت الضباع والثعالب هذه الصحراء الموحشة الآن، وأخذ البوم يضبح ليلًا في القبور المهجورة.

"هنا أقام سلطانٌ بعد سلطانٍ بجلاله وهيبته، حتى قضى نحبه ورحل."

ربما ترقد تحت أقدامنا أطلال مدينة كانت يومًا عظيمة وبهيّة، اندثرت ولم يتبق منها سوى ما لم تلتهمه يد الزمن والصحراء: هذا القبر الذي شُيِّد لملكٍ سرقت جثته من مرقدها منذ عصورٍ غابرة.

شُيِّد هذا القبر على يد "سِنفرو"، أوّل فرعون في العصور الأسطوريّة منذ فجر التاريخ المدوّن. وبعد مرور ألف عام على وفاته، ظل الناس يردّدون العبارة المأثورة: "لم يُرَ مثل ذلك منذ عهد سِنفرو." فتح "سِنفرو" أبواب التجارة بين مصر وفينيقيا،[1] وبسط نفوذ مصر في سيناء، وقمع القبائل المتمرّدة، وطوّر المناجم، ومهّد الطرق، وأرسى دعائم الرخاء والاستقرار في بلاده.

لا يُعرف الكثير عن حياة، "خوفو"، الذي خلف "سنفرو" وشيد الهرم الأكبر، وأقلّ من ذلك هو ما عرف عن سيرة "خفرع" الفرعون الذي جاء بعده.

[1] حضارة قديمة تمركزت في شمال كنعان، على طول المناطق الساحلية التي هي اليوم لبنان، سوريا، وفلسطين.

لقد اقترنت صورة الملك بالإله وكأنه تجسيد له منذ فجر التاريخ، كما تدل على ذلك النقوش القديمة المعروفة بـ"نصوص الأهرامات". ها هو تمثال "خفرع"، بالحجم الطبيعي، يتربّع في صمت بالمتحف المصري، يجسد فكرة العرش الذي تهبه السماء لا تصنعه الأرض، ويرمز للحق الإلهي للملوك. تمثالٌ يفيض جلالًا وسكينة، تحيط به هالة غريبة من الشموخ، تشبه تلك التي صوّر بها الإغريقُ آلهتهم— شموخُ من ارتقى فوق صخب العالم، لا تبلغه آلامه، ولا تزلزله صراعاته لأن إدراكه فاق حكمة البشر وتعاطفهم. يبتسم ابتسامة تُشبه ابتسامة مصر الخافتة الغامضة، تلك التي لا تسكن الشفاه، بل تكمن في العينين، وفي ملامح الوجه بأسره؛ ابتسامة لا تنبئ بالفرح، بل توحي بفهمٍ عميقٍ لأسرار الحياة. نرى هذه الابتسامة ماثلة في التماثيل الإغريقية القديمة التي تأثرت بفنّ المصريين الأوائل، ثم غابت عن العالم لقرونٍ طويلة، حتى أعاد ليوناردو دافنشي إحياءها في عصر النهضة الإيطالية—ذاك البعث الجديد للروح الكلاسيكية القديمة.

يتساءل المرء: كيف كانت تلك الحضارة—التي لا نكاد نُعيد رسم ملامحها إلا بمقدار يسير من الظن—والتي استطاعت أن تخلّف لنا عملًا فنيًّا يُجسّد، بدقة وجلاء، أسمى معاني المُلك؟

حتى اليوم، يستطيع كل من تقع عيناه على تمثال "خفرع" أن يُدرك عظمته، وقوته، وحكمته وهو جالسٌ هناك، كأنّما يحكم على الدنيا وما فيها، لا بسطوةٍ أو قسوة، بل ببصيرةٍ مستنيرة، يتأمل الجهود البشرية بما فيها من نجاح وإخفاق، كأنّه يراها كلّها عرضًا عابرًا، لا وزن له في ميزان من شهد كرّ العصور ومرّ القرون، وبقى واقفًا في صمت، بينما يمضي الزمن وتبقى مصر. كم من غازٍ مرّ بأرضها ثم مضى: الحبشي، والآشوري، والفارسي، واليوناني، والروماني، والعربي، والتركي، والفرنسي. أما الناس الذين رأيناهم يعملون في "مقبرة تي السعيدة"، فلا يزالون كما هم: في الحقول، على النهر، في القرى نفس الوجوه، ونفس الإيماءات، ونفس النشاط المفعم بالحياة. يا له من ثبات! فلاحو اليوم هم نفسهم فلاحو الأمس منذ خمسة آلاف عام.

اكتُشفت العديد من المقابر التي ضمّت رفات كبار الكهنة والنبلاء، بعض النقوش البارزة التي وُجدت فيها تُعدّ في غاية الإتقان، منها على وجه التحديد لوحةٌ تُصوِّر الإوزّ رُسمت بدقّة مذهلة وواقعية آسرة، كأنها التُقطت بعدسة عينٍ لا تخطئ. لقد بلغت هذه اللوحة من الإتقان في الأسلوب، والتفصيل، والروح، مبلغًا لم يبلغه تصوير الطير بعد ذلك إلى

يومنا هذا، وذلك لأنها وُضعت في القبر لتُبهج الـ"كا"—الروح الخفية- لأحد المصريين الذي مات منذ آلاف السنين.

نُقلت بعض هذه الأحجار المنقوشة إلى المتحف المصري في القاهرة، بينما أعيد دفن المقابر بالرمال لحمايتها من عبث السكان المحليين.

أحيانًا يعجب المرء من هؤلاء الفنانين، الذين بلغوا هذه الدرجة الباهرة من المهارة وصدق التعبير، ومع ذلك لم تكن لديهم القدرة على تمثيل المنظور (ثلاثي الأبعاد).

"لقد أرسى معظمهم قاعدة عدم تصوير الأرض واتبعوها في أعمالهم، فاستعاضوا عنها بخطّ مستقيم واحد تتحرّك عليه الشخصيات في المشهد نفسه، وكأنّهم يقفون على سطر وليس على الأرض. في الصفوف العليا، رسموا مشاهد ما كان للعين أن تراها لبُعدها، تمامًا كما لا نراها نحن، رغم شفافية الهواء المُدهشة. ومع ذلك، منحوا تلك المناظر النائية نفس الأحجام التي منحوها للمناظر السفلى، دون اعتبارٍ للمنظور. غير أنّ هذه 'العيوب' لم تكن عن جهلٍ أو تقصير، بل أملتها عليهم طقوس دينية صارمة؛ أليست هذه الرسومات – التي نُفذت

بأقصى درجات الدقّة والعناية – تمائم سحرية يتوقف عليها بقاء الإنسان بعد موته؟ إنّ أي خطأ فيها قد يُعرّض مصير "الكا" (القرين الروحي) للخطر؛ ولذا اضطرّ الفنّانون أن يُضحّوا بقواعد المنظور في سبيل الوفاء بأدقّ التفاصيل."[١]

من بين هذه القبور المندثرة جزئيًا، أُزيح الستار عن تمثالين ملونين بالحجم الطبيعي، يُجسّدان الأميرة "نفرت"[٢] وزوجها "رحتب".

تمثال الأميرة "نفرت"، بجسدها المتّزن ويديها المنسابتين على ركبتيها، تجلّت فيه ملامح امرأة نافذة النظرة، حادّة الذكاء، ذات حضور قويّ وشخصية آسرة. تتلألأ عيناها المصنوعتان من البلّور الصخري والمعدن ببريقٍ يوحي بشخصيّة حاذقة وعملية ومهيمنة إلا أنها ليست حالمة أو مترفة؛ فهي لا تحلّق في فضاء الأحلام، بل تضع قدميها على أرض الواقع بكل ما فيه من واقعية ووضوح. لم تُهدر تلك الحيوية المتقدة في خيالاتٍ حالمة، مهما بلغ جمالها؛ بل تجسدت كلّها في

[١] ماسبيرو: مصر بين أطلال الماضي ومشاهد الحاضر. (الكاتبة)

[٢] "نفرت" هي أميرة مصرية عاشت في مصر القديمة خلال الأسرة المصرية الرابعة، نُفرت تعني "الجميلة". تزوجت نفرت من الأمير "رحتب"، ابن الفرعون سنفرو. (المترجمان)

شخصيةٍ واقعيةٍ نافذة، تُوحي لأول وهلة بأنها تنتمي إلى عالمنا المعاصر. إن اعتقاد أن القوة وروح المبادرة سِمَتان مقتصرتان على زمننا هذا، وهمٌ يتحطم عند تأمّل ما خلّفه الفن المصري القديم من تماثيل ونقوش، تفيض بحياةٍ نابضة وقوة شخصية لا تقلّ عن أعتى رموز عصرنا الحديث. يجلس بجوارها، زوجها الذي يُقال إنه ابن الفرعون "سِنفرو". يا له من تناقض! يبدو وجه ابن الملك ضعيفًا؛ لا يصلح لأن يكون قائدًا للرجال. ورغم لون بشرته البنيّ الذي يختلف عن بياض بشرة زوجته— وهو لون قد يوحي بأصول إفريقية، رغم كثرة التأويلات التي طُرحت لتفسيره، كزعمهم أنّ الرجال يعيشون تحت لهيب الشمس الحارقة، بينما تبقى النساء داخل البيوت—إلّا أنّ ملامحه تدل على أصل عرقي أقوى من ملامحها. ترى في عيني الأمير، اللتين تحدّقان في الأفق، نظرة حالمة، كأنّه من أولئك الذين ينذرون حياتهم لقضايا خاسرة، لكنهم لا يملكون حيلة لتطويع الواقع أو تغيير مجراه. تُرى، هل كانت تلك السيّدة القوية التي تجلس بجواره من النساء اللواتي يسحقن الأرواح الأقرب إليهن؟ وهل تعمّد الفنّان أن يترك لنا مأساةً منحوتة في الحجر، ليتأمّلها العالم عبر العصور؟ ارتسمت على وجه الأمير، نظرة يائسة مختلطة بحزن الفشل- يقرؤها كلّ من وقعت عينه على التمثال— نظرة من أدرك

أن الحياة قد أدارته ظهرها، لكنه لا يزال يحتفظ بكبريائه الصامت لأنه معتز بنفسه، وليس لديه القدرة على التبرير، لأنه أكثر حكمةً من أن يفعل ذلك. رجلٌ خذلته الظروف، لا لأنه كان عاجزًا، بل لأنه لم يُتقن ما طُلب منه؛ ومع ذلك، تلوح في ملامحه كبرياءٌ صامت، وإدراكٌ دفين بأنه، لو قُدّر له أن يحظى بحظ أوفر، لما عُدَّ يومًا من الفاشلين.

يَتَوشّح الهرم بلونٍ برتقاليٍّ وادعٍ ساحر، ومن قاعدته الهائلة يبزغ برجٌ مربّع، يتألّف من ثلاث طبقات. كان في السابق يتكون من سبع طبقات إلا أن الزمان سلبه كثيرًا من علوّه ومجده.

يا له من جوٍّ يفيض بسكينة ووقار يخيّمان على هذه الأرض! يتساقط الحاضر عن الروح كما يتساقط الثوب البالي عن الجسد، وتغمر المرء نشوةُ التاريخ، وشعورٌ عميق بأنه غارقٌ في حياة الأزمنة الغابرة. تذخر الصحراء بهمهماتٍ وهمساتٍ خفيّة؛ أشباحٌ تتقدّم وتنسحب، وحتى تحت وهج الشمس الحارقة، يبدو الصمت مأهولًا بأرواح الفراعنة الراحلين. يتصاعد همسُ الماضي من محيط الزمن الغائم.

تسلّقنا جانبًا من الهرم المتداع، وألقينا نظرة على الأسفل، حيث القبور المنهوبة، وهي نصف مدفونة تحت الرمال التي تمحو آثار البشر بسرعة مذهلة، وتُواري أسرارهم في أعماقها الكئيبة.

حلقت فوق رؤوسنا حدآتُ مصرَ العظيمة، وأطلقت صرخاتها الحادّة. حلق صقرٌ بثبات في صفحة السماء الزرقاء الرحيبة، وأخذ يدور فوق رؤوسنا في دوائر وئيدة، تُحرّكه ضربات أجنحة هادئة. ثم استسلم للريح فجأة، وتدلّت ساقاه، وانحنى رأسه، ليتفحّص الأرض بحثًا عن فريسته. وعندما ظلّ معلّقًا في الهواء، ولامست أجنحته الممدودة أشعة الشمس، بدا وكأنّه تجسيدٌ حيّ لـ"حوروس الذهبي"، إله الشمس، كما صوّرته النقوش في معابد مصر القديمة ومقابرها.

في هذه الأرض ذات اللون الذهبي، تمنح أشعة الشمس الحياة، والموت، والجمال، ويغمر ضياؤها الجسد والروح حتى يكاد أن يمحي آلام الحياة وأحزانها أو يطهّرها؛ فمَن ذا الذي يقاوم هذا السحر؟ لا بدّ للجميع أن يصبحوا مثلنا، عُبّاد حورس، إله الشمس.

عندما نزلنا قليلًا إلى الناحية الشمالية، وجدنا فتحة البئر التي تؤدّي إلى حجرة الدفن. تحدثنا مع الحارس الأسمر للهرم، ذاك الذي لا يُعوّل

كثيرًا على البقشيش، في هذا الموضع المنعزل الذي لا يزال، إلى حدٍّ بعيد، مجهولًا لدى عموم السائحين.

حين لحقنا بالقافلة عند منتصف النهار، اكتشفنا أنّ الجمل الذي يحمل طعام الغداء قد تبعنا إلى "ميدوم" ثم ضل طريقه. كان سائس الجمل أعور العين، ولم يتمتع بقدرٍ كبير من الذكاء، لذا بدا أنّ الأمل ضعيف في أن يعثر علينا من جديد. أُرسل الفتيان الصغار الذين يقودون الحمير —ويركضون طوال اليوم حفاة في الرمال الحارقة—إلى أعالي التلال وإلى كلّ نقطة يُمكن التلويح منها، ليلوّحوا بعباءاتهم البيضاء في محاولة يائسة أن تراها تلك العين الوحيدة، بينما أطلق الحراس أعيرتهم النارية علّها تسترعي انتباهه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي ينشغل فيها الفتيان الصغار الذين يقودون الحمير عن عادَتهم الأثيرة؛ وهي ضرب الحمير، فقد كانوا يركضون هنا وهناك، حتى نسوا وخز الحمير وتعنيفها. لقد ترسّخت هذه العادة فيهم ترسّخًا عتيقًا، حتى ليخيّل إليك أنهم ما فتئوا يلهبون خاصرات تلك الدوابّ الصغيرة الصبورة بعصيّهم النحيلة، في إيقاع متوارث منذ أيام الفراعنة. إذا رجوت أحد هؤلاء الصبية أن يكف فلن يجدي ذلك نفعًا، ولا إذا طمأنته أنك قادر على تحريك دابّتك بنفسك.

وإن نُزِع منه سوطه، ابتدع واحدًا، أو استعار غيره، ولو كان في قلب الصحراء المقفرة. لا تنفع معه حيل العرب قاطبة؛ لا البقشيش، وهو أقواها وأمضاها، ولا أن تسوقه أمامك لعله يكفّ. إنّه مخلوقٌ جُبل على الضرب، لا على المسير فحسب؛ كأنّما قد خُلق والسوط في يده، لا ينفصلان.

ما إن تغفل لوهلة، حتى تجد الحمار ينفض مؤخرته فجأة، وتكتشف أن السائس قد عاد إلى هوايته القديمة وأخذ يلهب خاصرته بالسوط.

أما "جمعة"، سائس الجِمال الأسمر، فقد حمله الحماس على أن يشقّ طريقه بعيدًا عن القافلة. وفي وادٍ سحيق، التقى بدويًّا يسوق قطيعًا من الماعز. فما إن وقعت عينا البدوي عليه، حتى جثا على ركبتيه، ظانًّا أنه سقط في يد قاطع طريق، يتوسّل إليه أن يأخذ الماعز ويعفو عنه. حاول "جمعة" أن يهدّئ من روعه، مؤكّدًا أنه لا يطلب إلا جملا ضالا، لكن الرجل أبى أن يصدّقه، وفرّ هاربًا، تاركًا القطيع لمصير مجهول.

لاح لنا جملٌ في الأفق، فانتفض شيءٌ من الرجاء في القافلة، لكنّ الأمل ما لبث أن تلاشى، إذ تبيّن أنه ليس جملنا الضائع، ولا ظهر عليه

أثرٌ لصاحبنا "ابن الخليفة الأعور" — وهو اللقب الذي أطلقناه عليه، مذ علمنا أنّه من نسلٍ نبيلٍ، ولكن أذله الفقر، وأهانته تقلبات الزمان.

عندما أيقنا أن كل محاولات استعادة "غدائنا الضائع" باءت بالفشل، قررنا التوقّف. ترجّل الطاهي عن جمله، وأخذ يبحث بين الأحمال عمّا يمكنه إعداده. وبعد أن أنزل الحمولة من على ظهر عدّة جمال، وتأجّج في صدورنا لهيب التوقع، حتى خُيّل إلينا أنّه يغلي مثل المرجل، تنبّه رفيقنا البسيط إلى أنه لا ماء لدينا للطبخ! فما كان أمامنا إلا الرضا بما تيسّر: خبزٌ، وفاكهة، وبيضٌ نيئ، وحليب.

في النهاية، نصبنا خيامنا على سفح تلٍّ يطلّ على وادي النيل.

صعدنا إلى قمّة التل لنحظى برؤية أفضل للمشهد، فرأينا القمر يعلو في كبد السماء الزرقاء الصافية، كأنّه معلّق فوق رؤوسنا ويبدو معتمًا تمامًا، ونتوءات سطحه تبدو وكأنها مشكّلة من الجصّ. كما برز وجهُ "رجل القمر"[1] كمنحوتة بارزة، قسماته منقوشة بدقّة، كأنّما صاغها نحاتٌ في صخرٍ أبيض. بدت في الأفق أشرعة مراكب النيل كفراشاتٍ

[1] رجل القمر هو تعبير متداول في الخيال الشعبي الغربي، يُقصد به صورة وجه بشري تُرى — على سبيل التخيل — في تضاريس سطح القمر، نتيجة تداخل الظلال والبقع فيه. وقد شاع استخدام هذا التصوّر في الحكايات والأساطير والأدب الأوروبي.

بيضاء هائلة، تنزلق في سكينة على صفحة الماء. وحين تدثّر الأفقُ بوشاح الليل، اكتسبت لونًا رماديًا خافتًا، زادها غموضًا وجمالًا. أخذت تنساب في هدوء ثم تتلاشى في عتمةٍ أعمق كالأشباح.

رأينا بومةً صغيرة جاثمةً على حجر، تُطلق صرخةً شجيّة يتردّد صداها من بعيد، حيث يجيبها رفيقها بنداء مماثل. شعرنا أنّ الصحراء لم تألفنا بعد، إذ لم تُبدِ البومة أدنى خوف، بل استمرّت في حديثها الودود. لكنّ ثقتها كانت في غير موضعها؛ إذ دوّى صوتُ طَلقة، وسقط الجسد البنيّ الصغير في كومةٍ ذابلة. التفتنا، فإذا بـ"فضل الله" واقفٌ، وبندقيته لا تزال تُطلق الدخان. وعندما لُمْناه على تلك القسوة العابثة، قال: "بومةٌ كانت تنعق عند نافذتي ليال عدّة قبيل وفاة والدي... ومنذ ذلك الحين، أُطلق النار على هذا الطائر المشؤوم كلّما وقع بصري عليه."

في وقت متأخّر من المساء، عاد الجمل، وعليه فارسٌ كئيب منهك. بدت شفتاه متورّمتين من العطش، لم يذق طعامًا طوال اليوم، وظلّ يتنقّل يمنة ويسرة في بحثٍ يائس لا طائل منه. حينما أبصرناه، كانت دموع عينه الوحيدة تترقرق، وبدا منظرُه بائسًا مثيرًا للشفقة. توسّلنا إلى "فضل الله" أن يعفو عنه، لذا أبى أن يراه في تلك الليلة وآثر أن يُنزِل عليه

الليل سكينته، وقال بحكمة: "عيناي تتّقدان، ودمي يغلي... لكن لا يمكنني أن أضربه، فهو من أسرةٍ كريمة."

قيل لنا إننا سنحتاج إلى حارسٍ إضافي، لأنّ سكان القرى المجاورة "قومٌ سيّئون". وسمعنا فعلًا طلقاتٍ تتردّد في جنح الليل، لكنّ أصوات الطبول كانت حاضرة أيضًا، فلعلّ أولئك "القوم السيّئين" لم يكونوا سوى جماعةٍ تحتفل في فانتازيا صاخبة.

حين أطبق الصمتُ ولم يبقَ سوى نباح الكلاب المتقطّع في القرية، عاد صغيرُنا "بان"يعزف بأنينه الشجيّ على مزماره، ويردّد:

"طرَقتِ الريحُ بابي، فقلتُ: جاءني حبيبي الصغير،
فويلٌ لكِ، أيتها الريح، يا ماكرةً تضحكين من قلبٍ حزين!"

شوقٌ لا يهدأ، وأملٌ لا يخبو!

(١٧)

عِفريت

الأحد، ١٢ مارس

حين نظرنا من حولنا، وقعت أبصارنا على تلّين غير مستويين، كأنّما هما ركام من أنقاضٍ طواها الإهمال. لكننا سرعان ما علمنا أنّهما في الحقيقة بقايا هَرَمَي "لِشت"،[١] وقد نُزعت عنهما الكسوة الخارجية التي كانت تمنحهما الهيبة والجلال، فبدوا مهملين، وقد تلاشت عنهما كلّ سِمات العظمة. من العسير على من يراهما الآن أن يُصدق أنهما يحتضنان الأجساد المقدسة لفرعونيين من عظماء ذلك الزمان الغابر.

رأينا المقابر التي ترقد في أعماق بعيدة تحت الرمال، وقد غمرتها المياه حتى غدت مغلقة على أسرارها، لا سبيل إلى دخولها، ولا وسيلة

[١] لِشت: منطقة أثرية تقع إلى الجنوب من الجيزة، اشتهرت باحتضانها لهرمين يعودان إلى عهد الدولة الوسطى، وهما هرم الملك "أمنمحات الأول" وهرم ابنه "سنوسرت الأول" من الأسرة الثانية عشرة.

لمعرفة أيّ الفراعنة احتضنت. هناك، في ظلمة الماء الساكن، ترقد المومياوات الملكية في توابيت حجرية ضخمة، تتحدّى بصمتها الغامض علماء الآثار في زماننا، كما استعصت من قبل على أيدي لصوص العصور الغابرة.

شرعنا في رحلتنا عائدين إلى الديار، وبعد ساعتين من السفر، بلغنا "دهشور" من جديد في الموضع الذي كان فيه معسكرنا القديم الذي حمل لنا ذكريات سعيدة.

رأينا القباب البيضاء لقبور الأولياء تنتصب وسط البساتين الخضراء، والجِمال الصغيرة تلهو وتلعب تحت شجرة الجميز الكبيرة.

في هذه المرة سلكنا الطريق المنخفض الأقصر إلى سقارة، على حافة الأرض المزروعة، ومررنا ببركٍ كانت تغصّ بالبطّ، والبلشون (مالك الحزين)، والكركيّ، وطائر السَّنْد، في مشهدٍ يزخر بالحياة وسط الصمت الرمليّ الممتدّ من حولنا.

بعد قليل، حين عبرنا رقعةً من الصحراء، أثار فضولنا منظرُ جماعةٍ من الرجال بدَوا وكأنهم ينقّبون في الأرض. تُرى، هل كنا على موعدٍ مع لحظةٍ نادرة؟ هل سنشهد مومياء تُستخرج من الرمال، أو مجوهرات

زيّنت جبين ملكةٍ قبل أربعة آلاف عام تُبعث إلى النور من جديد؟ لكنّنا ما إن بلغنا الموقع، حتى اكتشفنا أن تلك الجموع المنهمكة لم تكن تنقّب عن آثار، بل كانت تحفر لاستخراج الملح!

كان الحرّ شديدًا، حتى إنّ عربة الرمال، على الرغم مما أبدته من براعة في اجتياز الطرق الوعرة، اضطُرّت إلى أن تسلك طرقًا طويلة ملتفّة، لتفادي حقول القمح والذرة المُحاطة بسدودٍ عالية وخنادق، كأنها صُمّمت لاختبار قدرة حصانٍ متمرّس كخيول الصيد الأيرلندية على القفز!

عندما واصلنا المسير شمالًا، لاح لنا في الأفق البعيد، عند منعطف من النهر المتعرج، مسجد "محمد علي"، يلوح كجوهرةٍ مضيئةٍ على هضاب المقطّم، وترتسم مآذنه الرشيقة على صفحة السماء في لحظة الغروب. أما مدينة القاهرة، الراقدة في السهل الخفيض أسفل التلال، فقد حجبتها عنّا الخضرة الكثيفة، التي تدل على بساتينها وشوارعها الطويلة المظلّلة بأشجار الأكاسيا.

مع اقتراب المساء، مررنا قرب مقبرةٍ كبيرةٍ على حافة الصحراء، وشعر حارسنا "رشيد" بالإرهاق والإعياء، فقرر أن يختصر الطريق، وسار

عبر تلك المقبرة بلا اكتراث، فاستثار بذلك قوى الشر، ولم تمضِ لحظات حتى أبصر في الأفق امرأةً مكسوّة بالسواد، ما لبثت أن تبدلت أمام ناظريه إلى امرأة بيضاء! حينها أيقن أن عفريتًا قد تلبّسه. "تغيّر دمه"، وتحول من شابٍ بشوشٍ مشرق الوجه، إلى رجل كئيب، شاحب الملامح، مضطرب الأعصاب. أجمع القوم من حوله أنّه ممسوس، غير أنّ رجاءهم لم ينقطع، إذ رأوا أنّ العفريت لم يُحكم قبضته عليه بعد؛ فلعلّ وليًّا من أولياء الله الصالحين يُهتدى إليه، يحمل في صدره رُقىً مُجرَّبة، تردّ عنه بأس الأرواح الخبيثة.

يُؤمن العرب إيمانًا راسخًا بوجود هذه الكائنات من الجنّ والعفاريت، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، باعتبارهم خلقًا بين الإنس والملائكة؛ يأكلون ويشربون، ويحيون ويموتون، ولهم في طباع البشر شَبَهٌ غير يسير. فمنهم الأخيار، ومنهم الأشرار، ويقدِرون على التشكّل في صور شتّى، أبرزها هيئة الحيوان، وعلى الأخصّ الأفاعي.

عندما يمرّ العربي في الأزقّة المظلمة، أو بجوار المقابر، أو في الأماكن التي يُظنّ أنها مأوى للأرواح الشريرة، يردّد آيات من القرآن الكريم تحصينًا لنفسه. ففي يوم القيامة، سيُبعث الجنّ والحيوانات كما يُبعث البشر.

فجأة، شقّ الصمتَ صوتُ المؤذّن، عذبًا وواضحًا، من مئذنةٍ بعيدة، ودوى نداء التوحيد الذي يرتجف له القلب، وتخشع له الأرواح، وارتفعت الهمم بالتسبيح للخالق العظيم.

"الله أكبر"، يرتفع النداء إلى السماء، فتخرّ آلاف الجباه ساجدةً في خشوعٍ وإجلال.

أراد "فضل الله" أن ننصب خيامنا في بستانٍ واسعٍ من النخيل، يلوح في الأفق على مسافةٍ منّا، لكنّ قُوانا خارت وخذلتنا قبل بلوغه بعدّة أميال. حتى "طُلبة" بدا وكأنه يبكي من فرط الإرهاق، رغم أنه لم يشكُ. جلس مترنّحًا على حماره، ودموعه تنساب على وجهه المغبَّر، تاركةً خلفها خطوطًا بيضاء حيث سالت. ربّما لم تكن تلك الدموع من التعب وحده، فقد عانى من قبل أيّامًا شاقّةً ومُضنية، لو مرّت على طفلٍ أوروبي في مثل سنّه لأهلكته.

من المستحيل ألّا ينجذب المرء إلى هذا الصغير المتماسك، فشجاعته التي لا تفتر، وضبطه لنفسه، يثيران الإعجاب. حتى أشدّ أفعاله إزعاجًا تأتي في هيئةٍ من الوقار البريء. لقد رأيناه يركب لساعاتٍ تحت لهيب الشمس، يعبر الرمال الحارقة دون أن يتأوّه. دائمًا ما كان يلهو قرب

المخيّم، وحده أو مع عبده الصغير، في رضا وهدوء. يرقص مع الرجال في ليالي القمر، رافعًا عصاه فوق رأسه بحماس، ويقلّد الكبار تقليدًا ظريفًا، فهو صورةً مصغّرة منهم. لم يكن صاخبًا، ولا كثير التذمّر، ولا ثرثارًا؛ بل كان طفلًا جادًّا، ووقورًا، ووديعًا. عَيْناه السوداوان الغامضتان في وجهه المستدير الطريّ، تومضان أحيانًا بابتسامة آسرة، كأنما تبوح بثقةٍ خفية، وتكاد تكشف لك سرّ تلك النفس الطفوليّة الشرقية، لكنها ما تلبث أن تنفلت، وتظلّ عصيّة على الفهم.

قضينا ليلتنا الأخيرة في حضن التلال الرملية التي تراصت حولنا في هيئة نصف دائرة، وعلى الأرض سجّادة من زهر السوسن العاطر تفترش الطريق تحت أقدامنا.

بدا رجالنا من العرب في مزاجٍ طيّب، وتتردّد من معسكرهم أنغامُ موسيقى متناثرة، وأصواتُ فرحٍ هادئ، بعد أن فرغوا من عشائهم الزهيد.

جلس "رشيد" يروي لهم سيرة سيدي "عقبة"،[١] ذلك الفارس المغوار في الإسلام، الذي لا تملّ الأذن من الحديث عنه. بدأ "عقبة"

[١] تقصد الكاتبة عُقبة بن نافع الفهري. (المترجمان)

مسيرته المتألّقة حلاّقًا للرسول، وبعد وفاة النبيّ، قاد جماعة صغيرة من قبائل العرب إلى مصر، التي لم يلبث أن فتحها، ولم يُغمد سيفه حتى خضعت له سائرُ بلاد شمال إفريقيا. وحين بلغ شواطئ المغرب، اندفع بجواده في مياه الأطلسي، متحسّرًا أنّ البحر حال بينه وبين مواصلة الفتوحات. ومن بحرٍ إلى بحر، سادت راية الإسلام، وانتصر دين محمد.

يرقد سيدي عقبة اليوم في واحة نائية من صحاري الجنوب، حيث شُيِّد فوق ضريحه مسجد بديع، يليق بمكانته، فهو أحد المرابطين الخالدين في الإسلام، ولا تزال أصداءُ مآثره تتردّد بين رمال الصحراء وأروقة المساجد في مشارق الأرض ومغاربها.

تحت ضوء النجوم الخافت، تهادى طيف رجالنا في الظلمة، ينهضون واحدًا تلو آخر، ويشرعون في الرقص.

اقتربنا من المجموعة المرحة، فرأينا "طُلبة" قد استعاد عافيته تمامًا، وأخذ يدور بعصًا تحت ذقنه، يهتزّ جسده الصغير، وتتراقص قدماه البنيّتان على الرمال في حركات متعثّرة. أما "علي"، فأخذ يصفّق بكفّيه، ويرمقه بإعجاب وود، بينما راح "سعيد" ينفخ في نايه القصبي، وأخذ "أحمد" يقرع على طبلته بإيقاع خفيف.

بعد ذلك آوى الجميع إلى خيامهم، وتلاشت الأصوات شيئًا فشيئًا، ولم يبقَ سوى خفق بعيد لطبلٍ صغير، كأن موسيقاه النابضة لا تبدد السكون، بل تُزيّنه وتزيده حضورًا وعمقًا. حتى النجوم، بضوئها الخافت، وتدلّيها الوادع، بدت وكأنها تُصغي لذلك الصمت العميق.

(١٨)
نهاية رحلتنا

الاثنين، ١٣ مارس

خرجنا من خيامنا واستنشقنا نسمات الصباح الباردة، وسُحرت أعيننا بروعة شروق الشمس، وهي تنير التلال وتغمر الوديان بألوان لم تألفها أعين الشمال. نزعت الصحراء عباءتها الزرقاء التي لفّتها ليلًا، واكتست رمالها الذهبية بلمعان أشعة الشمس. أما الجبال البعيدة في الشرق، التي وشاها ميلاد الشمس بلون ورديّ، فقد بدت بجمال أثيري؛ فقد كانت ألوانها تتوهّج وتخبو، ثم تعود لتندمج في مزيج من الأرجواني والبرتقالي، حتى تلاشت تدريجيًّا في بياض الوهج الشديد عند منتصف النهار.

لاحظنا عند الإفطار أن خدمِنا يشعرون بسعادة غامرة، ورأينا ابتسامة عريضة ترتسم على وجوههم. قال "عبد الصادق"، بأدب جم: "إن شاء الله، قبل أن تغرب شمس هذا اليوم، سأرى زوجتي وابنتي

الصغيرة." كما بدا "أحمد" أيضًا متلهّفًا للعودة إلى أحضان أسرته. إلا أنهما، في الوقت نفسه، وبما فُطروا عليه من كياسة ولباقة، عبّرا عن حزنهما لفراقنا، وأكّدا أنهم يودعاننا وفي القلب غصّة من الأسى على انتهاء مهمتهم معنا. اعترتنا الدهشة عندما علمنا أن هذين الشابين، اللذين لا يبلغ مجموع عمريهما معًا أربعين عامًا، أبوين لأسرتين.

إن العرب في الغالب آباء مُحبّون، ونادرًا ما تُسجَّل بينهم حالات قسوة تجاه الأطفال. ومن الأمور الجميلة التي تسرّ الناظر، ما يتحلون به من أدب جمّ ورقّة مشاعر تجاه الصغار وتبجيل للكبار. فقد أمرهم القرآن الكريم بالإحسان إلى الكبار والمرضى ومن حرموا نعمة البصر، وبأن يُنفقوا من أموالهم على الفقراء، حيث يقول الله تعالى: (ومَا تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)، لكنَّه أيضًا يُنبّههم بقوله: (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى). وفي سورة "الفجر" الجميلة، يُذمّ أولئك الذين "طغَوا في البلادِ، فأكثروا فيها الفساد"، بسبب ما يملكونه من أموال طائلة وسُلطان.

منذ ما يقرب من ألف وثلاثمئة عام، وفي وقتٍ كانت فيه أوروبا المسيحية غارقة في غياهب الجهل والتأخر والوحشية، وآدابها مبعثرة أو مفقودة، وفنونها الجميلة قد اندثرت، بزغ فجر الإسلام، وجمع بين قبائل العرب المتنافرة، وربطهم برابطة أخوّة وثيقة العرى في ظلّ عقيدة

قويّة. لذا أسس هؤلاء العرب في فترة وجيزة مراكز حضارية زاهرة في كبرى مدن آسيا وأفريقيا وجنوب أوروبا. فغدت "بغداد" مأوى للفلاسفة والشعراء والأدباء، وازدهرت في "القاهرة" و"قرطبة" وغيرها من المدن مكتباتٌ ضخمة، وازدهرت مدارس الطب والرياضيات والتاريخ الطبيعي. ويُعزى للإسلام الفضل في صون كثير من الآداب والمعارف الكلاسيكية، وهو ما تدين له به أوروبا حتى اليوم.

بالنسبة لكثير من العرب، يعتبر الدين كائنًا حيًّا نابضًا، يتخلل تفاصيل حياتهم اليومية، يمنحهم السلوى في لحظات الحزن، ويشدّ أزرهم في مواجهة الشدائد برضا وتسليم. إنه إيمانٌ يهبهم الشجاعة لمواجهة الموت دون وجل. غير أنّ روح العصر الحديث، بما تحمل من نزعات مادية، بدأت تتسلل إلى أرجاء العالم الإسلامي.

راقبنا، بقلوب يعتصرها الحزن، خيامنا تُفكّك للمرة الأخيرة. جلسنا في العربة الرملية، كما فعلنا مرارًا، بينما كانت "متعلّقاتنا الشخصية" تُحمَل على ظهور الجِمال الرابضة، التي لم تكفّ عن التأوّه والأنين، وكأنها تحمل فوق طاقتها. لقد اعتادت هذه المخلوقات على التذمر، كما يتضح في قصة تلك السيدة التي فتحت مظلتها – بعدما كانت مطويّة – فما كان من الجمل إلا أن اعتبرها عبئًا زائدًا، كأنها القشّة التي قصمت ظهره، فجثا متذمرًا!

جاء بعض فلّاحي الحقول ليشهدوا لحظة رحيلنا، ومن بينهم كانت هناك فتاة صغيرة فضولية، في نحو السادسة عشرة من عمرها. لُفَّ شعرها الأسود بوشاحٍ أصفر، وتدلّت من تحته ضفيرتان طويلتان حتى خصرها، قد خُضبتا بحنّاء حمراء زاهية، كما خضبت بها أطراف أصابعها ببساطة بريئة. وتتدلّى من أذنيها أقراطٌ كبيرة من خرز أزرق، بينما تلتفّ حول عنقها سلاسل عدّة من الخرز نفسه. وعلى الرغم من أنها فتاة ريفية بسيطة، إلا أنك قلّما ترى فتاةً بهذا القدر من الفطنة والذكاء والثقة بالنفس. أما زوجها، فكان على النقيض تمامًا؛ إذ بدا أشبه بصورة الفلاح البائس التي رسمها "ميليه"، بملامحه الغليظة، ورأسه المنخفض، ونظرته الخالية من الحياة، وقد غلبت عليه ملامح الحزن واليأس والجمود. كان أبعد ما يكون عن تلك السكينة والفطنة التي اعتدنا أن نراها على وجوه الفلاحين.

شققنا طريقنا بين بساتين النخيل التي عجزنا عن بلوغها في الليلة الماضية. مررنا بالسواقي وهي تدور، بعجلاتها الكبيرة التي لا تكفّ عن الحركة، تدفعها الثيران الصبورة، بينما لا ينقطع صريرها وأنينها، والماء المرتفع يتدفّق في القنوات الصغيرة التي تتفرع في الأرض العطشى.

تتمايل حقول القصب تحت أنسام الريح، بينما ترتفع أبراج الحمام شامخة بين أشجار "الأكاسيا" و"الميموزا"، كأنها أبراج مربّعة تراقب المكان.

مرت أمامنا امرأة نصفُ وجهها محجوب، تحمل جرّة ماء على رأسها، تمشي بخفّة بين النخيل، بينما رأينا فلاحًا، يرتدي قميصًا قطنيًا أزرق وطاقية بيضاء، ويقود قطيعه من الماعز وهو يدندن بأغنية حالمة. تجمّع حولنا أطفال، بشعور وأيدٍ مخضبة بالحناء، وأساور زجاجية تلمع في معاصمهم الصغيرة، يصيحون طلبًا لـ "البقشيش".

وصلنا سقارة بكل ما فيها من وعثاء مألوفة وجمالٍ آسر ومجموعات العرب الوقورين الذين يجلسون القرفصاء على المصاطب أمام المقاهي، يحتسون القهوة، ويلعبون الدومينو، ويدخنون النرجيلة أو السيجارة.

انهمكت النساء على أسطح البيوت المستوية في الطهو وتبادل الأحاديث مع الجارات، بينما تردّدت في الأزقة الضيقة من تحتهم نداءات باعة الماء والخبز والشربات.

واجهنا صعوبة في شقّ طريقنا بعربة الرمال وسط الزحام، وازدادت الأمور تعقيدًا حين واجهنا قافلة من الجِمال، ولامست أحمالها جدران البيوت على الجانبين.

خرج إلينا رجل عربيّ وسيم من بيت مطليّ باللون الأبيض، يضع على رأسه عمامة خضراء تدلّ على أنّه حاج،[١] وعرض علينا – بكرم الضيافة الشرقي – شيئًا من الزاد. لقد كان شيخ القرية، وقد أدّى فريضة الحج مرتين.

عندما غادرنا سقارة، ألفينا أنفسنا من جديد في عالم السياحة المألوف، حيث الحمير المسرعة، ونظارات الشمس، والقبعات البيضاء، وآلات التصوير، وسائر أدوات الرحلات العصرية.

بعد أن قضينا تسعة عشر يومًا من حياة البساطة، نعود – بمشاعر متضاربة – إلى صخب المدنية وضجيجها.

لقد منحتنا الأيام الماضية تنوّعًا لا يُملّ، وجمالًا لا يُحصى، وألوانًا تنبض بالحياة، ودهشةً تتجدّد في كل لحظة، وسحرًا يملأ كل ساعة.

حقًا، ما أشبه الصحراء بالبحر! كلاهما يغسل هموم الإنسان ويتركه خفيفًا من أعباء الحياة.

النهاية

[١] تقصد الكاتبة أنه من الأشراف. (المترجمان)

السيرةُ الذاتيةُ للمترجمَين

د / محمد السيد علي عزب

(القائمة القصيرة لجائزة رفاعة الطهطاوي للترجمة لعام ٢٠١٩ عن ترجمة كتاب ذكريات أميرة مصرية)

(القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية العربية، فئة الرواية التَّاريخية غير المنشورة لعام ٢٠٢٤ عن رواية «ماكآدم»)

القائمة الطويلة لجائزة كتارا للرواية العربية، فئة الرواية التَّاريخية غير المنشورة لعام ٢٠٢٥ عن رواية «سرنديبية»)

- مدرس الأدب الإنجليزي «المنتدب» بكلية التَّربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- أرحام سماوية: (رواية). القاهرة: دار العين، ٢٠١٢.
- الأساس في التَّرجمة. الإسكندرية: حورس، ٢٠٠٨.
- اضحك وتعلم الإنجليزية. الإسكندرية: دار الإبداع، ٢٠١٠.

- أقفال العشق: (رواية). الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٤.
- أمس انتهينا: (رواية). الإسكندرية: دار مير، ٢٠١٣.
- أنا نصفك الغائب عنك: (رواية). القاهرة: دار غراب، ٢٠١٨.
- بتلر، ألفريد جاشوا. الحياة في البلاط الملكي المصري. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٣.
- بين الحب والحرب: (رواية). الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٣.
- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللُّغة الثانية: مع التَّركيز على اللُّغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٩.
- ثاير، إيلا شيفر. الحب عبر أعمدة البرق. ترجمة محمد السيد علي عزب. بيروت: دار طوي، ٢٠١٢.
- خيوط القدر: (رواية). القاهرة: دار العين، ٢٠١١.
- رحلة سناء حسن إلى إسرائيل. القاهرة: دار روافد، ٢٠١٩.
- روايات محظورة. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر. الإسكندرية: دار الإبداع، ٢٠١٠.

- شانيل، إلين. ذكريات أميرة مصرية. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني: من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥: آرائهم وموقفهم من الحرب. ألمانيا: لامبرت للنشر الأكاديمي، ٢٠١١.
- صدفة بتجمعنا: (رواية). القاهرة: دار العين، ٢٠١١.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. إسلاموفيليا. القاهرة: دار التَّقوى، ٢٠١٩.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية. القاهرة: دار غراب، ٢٠٢٠.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. طريق القاهرة السويس. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٢٣.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. ينبع وجدة والمخا في كتابات طائفة من الرحالة والمسافرين البريطانيين (من ١٧٨١ إلى ١٨٤٦)، القاهرة، دار غراب للنشر والتَّوزيع، ٢٠٢٥.
- عقدة سليمان: (رواية). القاهرة: دار إبداع، ٢٠١٥.
- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.

- قبر راحيل: (رواية). القاهرة: دار العين، ٢٠١٢.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي. كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللُّغة الإنجليزية وتثريها. الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠١٣.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي. سيوة في كتابات الرحالة البريطانيين من ١٧٩٢- ١٩٢٠. القاهرة: دار العربي، ٢٠٢٢.
- اللُّغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.
- اللُّغة العالمية الموحدة: مقومات النَّجاح وعوامل الفشل. كفر الدوار: مكتبة بستان المعرفة، ٢٠١٠.
- مختارات من الأدب الأنجلو - أمريكي. كفر الدوار: مكتبة بستان المعرفة، ٢٠١٠.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا «ترجمة». سلسلة المسرح العالمي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠.
- الهوس والتَّوهم والرهاب والعقد النَّفسية والمتلازمات الثقافية في السرد الروائي العربي: دراسة تتبعية. القاهرة: دار غراب، ٢٠١٧.

- ويفل، آرثر. حاج في مكة. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٤.
- ماكآدم (رواية)، القاهرة، دار غراب، ٢٠٢٥.
- الأزهر المعمور "أوكسفورد الشرق" في الكتابات البريطانية والأمريكية الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٩٢٨: (ترجمة) مع مي موافي، مجلس حكماء المسلمين، تحت الطبع.
- Brush upon your English. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٨.
- English Poetry. الرياض: دار النَّاشر الدولي، ٢٠٢٠.
- Enhance your English Vocabulary. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٨.

د/ مي محمود سليمان موافي

(القائمة القصيرة لجائزة رفاعة الطهطاوي للترجمة لعام ٢٠١٩، عن ترجمة كتاب ذكريات أميرة مصرية)

- مدرس اللغويات والتَّرجمة بقسم اللُّغة الإنجليزية وآدابها والتَّرجمة الفورية بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر.
- مدرس زائر بجامعة ميريلاند بضاحية بلتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية (٢٠١٩).
- مدرس مساعد منتدب بكلية اللُّغة والإعلام، بالأكاديمية العربية للعلوم والتَّكنولوجيا والنقل البحري.
- درست في معهد اللغات للقوات المسلحة بالإسكندرية.

اشتركت ولها العديد من الأعمال المترجمة ومنها:

١. كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللُّغة الإنجليزية وتثريها (مع د. محمد عزب)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٢.

٢. الحياة في البلاط الملكي المصري، (كتاب للمؤرخ الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة مع (د. محمد عزب)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

٣. حاج في مكة، آرثر ويفل، ترجمة مع (د. محمد عزب)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٤.

٤. ذكريات أميرة مصرية (للكاتبة الإنجليزية: إلين شانيلز)، ترجمة مع (د. محمد عزب)، المركز القومي للترجمة، القاهرة (٢٠١٨).

٥. إسلاموفيليا: في حب الإسلام ورسوله، (مجموعة من الكتاب)، ترجمة (مع د. محمد عزب)، دار التَّقوى، (٢٠١٩).

٦. إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية: مشاهدات طائفة من الرحالة الأنجلو - أمريكي، ترجمة (مع د. محمد عزب)، القاهرة: دار غراب للنشر والتَّوزيع، ٢٠٢٠.

٧. الرحالة البريطانيون والأمريكيون في مصر من- 1673 ١٩١٦: مقتطفات من مشاهداتهم. ترجمة (مع د. محمد عزب). الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢١.

٨. سيوة في كتابات الرحالة البريطانيين من ١٩٢٠:١٧٩٢ ترجمة (مع د. محمد عزب) القاهرة: العربي للنشر والتَّوزيع، ٢٠٢٣.

٩. طريق القاهرة السويس من ١٨٣٩ إلى ١٨٥١: مشاهدات طائفة من الرحالة الأمريكان والبريطانيين، ترجمة (مع د. محمد عزب)، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٢٣.

١٠. ينبع وجدة والمخا في كتابات طائفة من الرحالة والمسافرين البريطانيين (من ١٧٨١ إلى ١٨٤٦)، ترجمة (مع د. محمد عزب)، القاهرة، دار غراب للنشر والتَّوزيع، ٢٠٢٥.

١١. الأزهر المعمور "أوكسفورد الشرق" في الكتابات البريطانية والأمريكية الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٩٢٨، ترجمة (مع د. محمد عزب)، مجلس حكماء المسلمين، تحت الطبع.

١٢. المرأة في الإسلام، (ترجمة إلى الإنجليزية) مع د. عبير عبد العال، مراجعة أ.د. أحلام عثمان، جامعة الأزهر، تحت الطبع.